اعترافات

أبو نواس

بقلم

كامل الشناوى

الطبعة الثانية

دار المعارف

اعترافات
أبو نواس

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

ليالى «أبو نواس» مع أستاذه الأول
... أستاذه الذى علمه الشعر والكفر والمجون

أبو نواس، الشاعر، الساحر، العربيد.. أبوه هانئ، كان جنديًّا ثم اشتغل بحياكة الملابس، ورعى الغنم. وأمه «جلبان» امرأة لعوب. سلبت لب والده وتزوجته، فلما مات أحبت فتى اسمه العباس، وجعلته زوجًا لها، وكانت صناعته الوحيدة أنه زوج أم أبى نواس!

من شعراء القرن الثانى الهجرى. اسمه ابن هانئ، وكنيته أبو نواس، أو ذو نواس.

كان عصره عصر العلم والمعرفة والحضارة، عصر الفتن، والانقلابات السياسية، والثورات الفكرية، فقد ولد عندما كانت دولة الأمويين فى طريقها إلى الظل، وكانت دولة العباسيين تأخذ مكانها تحت الشمس. وفى عهد هذه الدولة اتسعت اللغة العربية، لثقافة الصين، والهند، وفارس، والرومان، واليونان، وأبيحت حرية الفكر، وحرية التعبير،

وحرية العقيدة، حرية الهدى والضلال، حرية التقوى والفجور! حرية السمو إلى البحث عن الحقائق، وحرية التدحرج إلى المجون والانحلال.

وسما أبو نواس.. وتدحرج! بحث وعبث.. كفر وتاب..

ما أكثر الشبهات التي تحوم حول هذا الشاعر..!

هل كان حائرًا بين الشك واليقين؟ هل كان مؤمنًا عاصيًا؟ هل كان بلا دين؟

ما حقيقة أمه «جلبان»؟ لماذا انتقلت من «الأهواز» إلى مدينة «البصرة»؟ كيف كان بيتها الذي أعدته لاستقبال العشاق.. لقد كانت لا تكتفي بتقديم الخمر والطعام لروادها، بل كانت تقوم أيضًا بتقديم النساء للرجال. والرجال للنساء. وتعطيهم الفرش والغطاء.. وتغريهم بأن يبث بعضهم بعضًا لواعج الحب، والشوق، والشهوة، وكان أبو نواس يعيش خارج البيت.. في الليل يطلب العلم بمسجد البصرة، على أساتذة اللغة والفقه والأدب، والحديث، وتفسير القرآن، وفي النهار يشتغل صبي عطار!

لقد حكم التاريخ على أبى نواس بالميوعة، والانحلال، والخلود !

حكم التاريخ على أبى نواس بالفساد وألقى القبض على الشاعر الفاجر والبة بن الحباب واتهمه بأنه أول من أفسد أبا نواس ! فقد اغتصب أبا نواس من العطار، وأخذه إلى « الكوفة » حيث أقاما معًا فى بيت واحد، وفراش واحد، وكان والبة أستاذًا كبيرًا فى الشعر، والزندقة، والفجور.. وكان يجهر بزندقته ويتهتك فى فجوره.

.. وكان اسمه يدوى فى المدائن الثلاث الكبرى : بغداد، والبصرة، والكوفة. وكانت الكوفة موطنه، ومحل إقامته. وهو من قبيلة عربية، ولكن خصومه طعنوا فى نسبه. فقد كان وجهه أحمر، وشعره أشقر، وهجاه الشاعر أبو العتاهية فقال : هذا الأشقر الأحمر كيف يكون عربيًا « ولونه من بنى قيصر » !؟ وشبه وجهه بالرئة الحمراء.. وشبه رأسه بالطائر الأصفر.

لماذا غضب الرشيد على أبى نواس ؟ كيف دخل السجن، وكيف كانت حياته فى السجن ؟ ما حقيقة علاقته بالخليفة

الأمين؟ هل كان بينهما حب وغزل. أو كانت بينهما مودة وصداقة؟ من هي المرأة التي أحبها؟ وهل هي امرأة واحدة؟ أم هن أكثر من امرأة؟ ما سر تعلقه بالخمر؟ هل كان يرتاد المواخير والحانات في الأديرة، والقرى، وضواحي بغداد طلبًا للخمر وحدها، أم كان يطلب الخمر وأشياء أخرى غير الخمر؟! من هم أصدقاؤه «عصبة المجان» وكيف كانت حياته معهم؟

هل كانت لأبي نواس عقيدة دينية، هل كانت له فكرة سياسية؟ هل كان له مذهب فني، أو مذهب في الفلسفة؟

إن الذين كتبوا عن أبي نواس لم يقولوا الحقيقة كلها... لم يقولوها جهلًا، أو غيرة، أو حياء..

أبو نواس وحده هو الذي يستطيع أن يقول الحقيقة، ويعترف بها دون جهل أو غيرة، أو حياء!!

في سوق العطارين:

وقابلت أبا نواس... قابلته من خلال شعره. وما كتبه عنه أكثر من ثلاثين كاتبًا في مواضع متفرقة من كتبهم. وفي دراسات خاصة عنه. والتقيت به في ثنايا التاريخ، إن بيني

وبينه اثنى عشر قرنًا، طويتها القهقرى، ورأيته وجهًا لـوجه فى القرن الثانى الهجرى، فى البصرة... فى سـوق العـطارين... فى دكان عطار.

السوق مزدحمة بالدكاكين، وقـد جلس فى عتبـة كل دكان صاحبها، ووقف إلى جانبه صبيه، وعتبات الـدكاكين مفـروشة بالسجاجيد العجمية، وأصـحاب الـدكاكين يـرتدون مـلابس زاهية الألوان.. وقد وضعوا على رءوسهم عمائم مدببة. ورواد السوق من جميع الأجناس والأديـان. بينهـم العـربى والفـارسى والمسلم والمسيحى واليهودى والمجوسى. وقـد ضـاقت مسـالك السوق. وكثرت التواءاتها، وتعـددت دروبهـا ومـداخلها. وعلى أبواب الدكاكين تبرز مختلف البضاعات وقد عـرفت مـن بينهـا الصندل، وأعواد البخـور، والـزيتون، والـكمون، والشـيح واللبان، وأوانى من الخزف والفخار. الحركة فى السوق دائبة. والزحام شديد.

وذهبت إلى الدكان الذى اختـاره أبـو نـواس للجلـوس فيه.. كان صاحب الدكان شيخًا فى السبعين مـن عمـره. وعندما وصلت إلى دكانـه كان ينهض مـن فـوق السـجادة

بمساعدة صبيه فى طريقه إلى بيته ليتناول طعام الغداء، وألقيت عليه تحية الإسلام وقلت للرجل : أين أبو نواس؟

فقال : أبو نواس هناك فى الطرف الآخر من الدكان..

كان جالسًا فوق سجادة، وقد اتكأ إلى أريكة، وأسند ظهره إلى أريكة، وثنى إحدى رجليه، ومد رجله الأخرى.. كان ناحلاً أشيب الشعر. وكانت لحيته خفيفة.. وجهه شاحب وعيناه صغيرتان براقتان. سوادهما ناصع، وبياضهما تشوبه صفرة.

وقلت له : لم أتصور أنك أبو نواس...

فقال : أنا هو!

قلت : إن أوصافه لا تدل عليك.

فقال : من أين أنت؟

قلت : من القرن العشرين!

فقال : هل وصلتم إلى القرن العشرين؟!. لقد ظننا أنكم لا تزالون فى القرن الرابع عشر!

قلت : لك حق.. نحن بالتاريخ الهجرى فى القرن الرابع عشر.. وبالتاريخ الميلادى فى القرن العشرين.

فقال : يحسن أن نتفق على تاريخ.

قلت : لنتفق على التاريخ الهجرى حتى لا نخطئ... أنا من القرن الرابع عشر...

فقال : من أى بلد؟

قلت : من مصر!

فقال : أعرفها... فقد زرتها وقابلت فيها الخصيب، ما أجمل منية الخصيب! ما اسمها الآن؟

قلت : اسمها المنيا فقط!

فقال : لقد مدحت ابن الخصيب بقصيدتى التى أقول فيها :

لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره!

وغضب شعراء مصر، وهاجمونى، وقالوا كيف يقتحم علينا بلادنا شاعر غريب عنا. ويستأثر بهبة الأمير؟ ولكنى عرفت كيف أهدئهم، فقد اشترطت على الأمير قبل أن أنشد قصيدتى أن يجيز شعراءه فأمر لكل واحد منهم بجائزة عظيمة!

الشباب.. والزمان :

قلت : ولكنى ما زلت أشك فى أنك أبو نواس! فإن

الأوصاف التى نعرفها عنه، لا تنطبق عليك.

قال: وماذا تعرف عن أوصاف أبى نواس؟

قلت: إنى أراك شيخًا وقورًا، جلله الشيب، والاتزان والهدوء، وأبو نواس الذى نعرفه، كما وصفه ابن منظور «حسن الوجه رقيق اللون، أبيض، حلو الشمائل، ناعم الجسم، وكان شعره منسدلاً على وجهه وقفاه، ألثغ يجعل الراء غينا، لحيف، فى حلقه بحة لا تفارقه»!

وما أراه الآن شىء آخر!!

وضحك أبو نواس وقال: إنك تتكلم عن أبى نواس فى صباه. هكذا كنت ولكن الزمن غيرنى. ألم تعرف قولى:

لقد طالما كنا ملاحًا وربما صددنا، وتهنا، ثم غيرنا الدهر!

قلت: لقد جئتك من وراء القرون لأراك. وأحقق أشياء حامت حولك ولصقت بك... وربما كنت بريئًا منها، وليس فى مقدور أحد سواك أن يؤكد براءتك...

فقال: ومن أخبرك أنى حريص على أن أكون بريئًا؟ أنا لا أريد أن أكون بريئًا، ولا مذنبًا.. ولكنى أريد أن أكون كما أنا!!

قلت : ومن أنت ؟

فأعاد السؤال لى قال : ومن أنت ؟

قلت : أنا قارئٌ لأشعارك وأطمع فى أن أعرف حياتك، وفنك وعقيدتك وسلوكك الشخصي . .

فقال : هل هذا أمر مألوف عندكم ؟

قلت : هو أمر مألوف جدًا . . فلست أبغى منك أكثر من حديث.

فقال : إن الحديث لا يقوله إلا نبى !

قلت : نعم . . الحديث الشريف لا يقوله إلا نبى !

فقال : وهل تريد حديثًا غير شريف !

من هم الصحفيون ؟

قلت : لا أعنى ذلك ! ولكنى أردت أن أظفر منك بحديث صحفى . . أو تحقيق صحفى . . وهذا ما يجرى عليه العرف دائمًا فى أيامنا !

فقال : إن أيامكم تختلف عن أيامنا يا بنى . . لقد كنا نهجو الرواة فنقول إنهم « صحفيون » . . ينقلون رواياتهم من

الصحف. أى الكتب المصحّفة، المحرّفة ولا يسندونها إلى مصادرها، وقد طلب منى أستاذى «خلف الأحمر» أن أرثيه قبل أن يموت فقلت مادحًا له:

فكل ما نشاء منه نغترف رواية لاتجتنى من الصحف!

ويظهر أن ما كان عندنا عيبًا أصبح عندكم مزية!

قلت: إن الصحافة فى هذه الأيام شىء آخر غير الصحف التى حدثتنى عنها.

وحاولت أن أشرح له مهمة الصحافة ولكنه أفهمنى أن حالته الذهنية لاتسمح بالخوض فى أمور لا يعرفها.

وقال: لقد فهمت أن الحديث الذى تريده هو سؤال منك وجواب منى.. إن كان كذلك فاسأل عما تشاء.

أبو نواس يروى قصة حياته:

- متى ولدت؟

- فى سنة ١٤٠.

- من هو أبوك؟

- هانئ.. عربى شجاع.. كان جنديًا فى جيش مروان،

وذهب إلى الأهواز . . وهى تقع بين البصرة وفارس . . وهناك عرف أمى فتزوجها. وأمى اسمها «جلبان» من أصل فارسى. ولما انهزم جيش مروان وقامت دولة العباسيين ترك أبى خدمة الجيش. واشتغل بحياكة الملابس. وكان يرعى الغنم. ثم مات. فتزوجت أمى شخصًا يدعى العباس. وانتقلنا إلى البصرة. وقد أحببت البصرة واتخذتها وطنًا لى.

- ما اسمك ؟

- الحسن بن هانئ.

- ما كنيتك ؟

- أبو على.

- ولماذا سميت أبا نُواس ؟

- كان أستاذى خلف الأحمر عالمًا بالأنساب وقد هداه البحث إلى أنى من اليمن. أنحدر من صلب أمير من أمرائها، وكان لكل أمير كنية. فهذا ذو المنة. وهذا ذو الحكمة. وهذا ذو نواس. وأعجبنى ذو نواس فاخترته. ولكن الناس أرادوا أن تكون كنيتى أبا نُواس، وليس ذا نواس وقد كان لهم ما أرادوا.

أستاذه الذى أفسده:

- من الذى علمك الشعر؟

- والبة بن الحباب؟

- لقد قيل إنه علمك الفسق.

- والشعر أيضًا؟

- هل كان والبة فاسقًا حقًّا؟

- وكان شاعرًا حقًّا!

- هل صحيح بعض مايقال؟

- كل ما يقال!

- وكيف كان ذلك؟

- كنت أشتغل صبيًا فى دكان عطار.. هذا العطار.. الحسن بن سليمان. وكنت جميل الصورة، حلوًا، جذابًا. وكانت أمى قد جعلت من بيتها مباءة للعشاق والفساق. فهجرت البيت وأقمت مع الحسن فى بيته. فعاملنى معاملة الوالد لابنه. وكان حنونًا رحيمًا. كان حبه لى حبًا عفيفًا، وفى يوم من الأيام جاءه رسول من «أبى بجير الأسدى» حاكم

الأهواز، ودعاه إلى العمل فى داره فأخذنى معه. وهناك التقينا بوالبة بن الحباب. وهو ابن عم الحاكم. وكان قد جاء من الكوفة ليزوره ويطلب رفده. فلما رآنى أحبنى. وأدنانى منه. وقد كنت أميل إلى الشعر. وأسمع اسم والبة يتردد على الأفواه، وأحفظ كثيرًا من شعره، ولم أكن أعرف شخصه. فلما عرفته أقبلت عليه بكل جوارحى، وقد اتفق معى على أن أصحبه إلى الكوفة فى غفلة من الحسن العطار.

- كيف أغراك بالذهاب إلى الكوفة؟

- قال «إنى أرى فيك مخايل فلاح.. وأرى لك ألا تضيعها، وستقول الشعر وتعلو فيه فاصحبنى».

وكنت حتى هذه اللحظة لا أعرف من هو فسألته من أنت؟

فقال: والبة! فصرخت من الفرح وقلت له: «أنا والله - جعلت فداك - فى طلبك، وقد أردت الخروج إلى الكوفة وإلى بغداد من أجلك» فسره ذلك وسألنى: لماذا تطلبنى؟ فقلت: شهوة للقائك، ولأبيات سمعتها لك فقال: وما هى هذه الأبيات؟

فأنشدتها وهى التى يقول فيها :

ولها - ولا ذنب لها - حب كأطراف الرماح
جرحت فؤاك بالهوى فالقلب مجروح النواحى !

- هل كان والبة يحب جمالك. أو كان يحب شعرك ؟

- جمالى وشعرى !... ألا تعرف قصته مع شعرى ؟

- أريد أن أعرفها.

- كنا فى الكوفة فى منزل محمد بن سيار بن يعقوب. وكان عنده قيان يغنين. ومجلس شراب. استمر حتى الصباح. وأعجبتنى إحدى العازفات، فقلت فيها هذه الأبيات :

حامل الهوى تعبُ يستخفه الطربُ
إن بكى يحق له ليس ما به لعب
تضحكين لاهية والمحب ينتحب
تعجبين من سقمى صحتى هى العجب

وفى اليوم التالى اجتمع عند والبة جمع كبير من الشعراء فقال لهم : «كنت نائمًا أمس، وأبو نواس إلى جانبى إذ أتانى آت فى منامى وقال : أتدرى من هذا النائم إلى جانبك ؟ قلت : لا. فقال : هذا أشعر منك. وأشعر من الجن

والإنس. أما والله لأفتنن بشعره المشرق والمغرب. فعلمت أنه إبليس.. فقلت له: فما عندك؟ قال عصيت ربى فى سجدة فأهلكنى. ولو أمرنى أن أسجد لهذا ألف سجدة لسجدت!»

قلت: هذه قصة والبة مع شعرك.. فما هى قصة غرامه معك؟

قال: دع هذا الآن...

- هل أحرجتك بهذا السؤال؟

- لاشيء يحرجنى.

- ربما يضايقك أن تتكلم فى هذا الموضوع بصراحة؟

فابتسم وقال: كيف وأنا القائل:

أطيب اللذات ما كان جهارا

- ولماذا إذن لا تريد أن تتكلم عن غرام والبة بك؟

- لقد تعبت اليوم من الكلام.. فأمهلنى إلى غد.

- ستتكلم غدًا عن والبة؟!

- نعم.. عن غرامه بى.. عن شعره وزندقته وأستاذيته لى فى الشعر والزندقة!

أبو نواس لا تنقصه الصراحة !!

لماذا هدده أستاذه بالذبح.. وشهر عليه السكين ؟!
لياليهما في مجالس الشعر والغناء، وبيوت اللهو والمواخير !!

اريد ان انسى :

.. هل تذكر وعدك لى بأن تحدثنى عن والبة.. أستاذك الذى أفسدك وعلمك الشعر والكفر والمجون ؟

فقال أبو نواس : أريد أن أنسى هذا الوعد !

- لماذا تريد أن تنساه ؟

- بعد ما تركتنى أمس، فكرت طويلاً وهدانى تفكيرى إلى أنه ليس من الصواب أن أفضح سرى، وسر رجل آخر كل ذنبه أنه أحبنى..

- ولكن هذا السر مفضوح فعلاً.. وقد ظل حديث الناس على مدى القرون !

- مادام الناس قد عرفوه فلا حاجة بهم إلى أن يعرفوه مرة أخرى!

- ولكنهم لم يعرفوه على حقيقته.. فقد سلط الرواة خيالهم على كل ما يتعلق بك فضاعت الحقيقة.

- من الخير لى أن تضيع هذه الحقيقة!

- ولكن البحث عن الحقيقة واجب..

- إنه واجب بالنسبة إلى الفلاسفة.. ولستُ فيلسوفًا!

- ولكنك شاعر وفيلسوف..

- أنا شاعر فقط.. ولم أبحث عن الحقيقة فى شىء. ولم أجدها فى شىء!!

- وإذا وجدتها ألا تعترف بها؟

- إذا وجدتها أهرب منها.. فلا شىء يفسد الخيال مثل الحقيقة!! وأنا حريص على أن يظل خيالى صحيحًا!

- لقد وعدتنى.. ووعدُ الحر دين عليه!

- كيف يكون حرًا من يمزق شرفه بحد لسانه؟

- يكون حر الفكر..

- هل هذا أمر مستساغ عندكم؟

- ليس مستساغًا.. ولكنه موجود!

- هل يوجد من اعترف بفضائحه؟

- كثيرون اعترفوا.. بعضهم قال كل الحقيقة.. وبعضهم قال نصف الحقيقة.. وبعضهم قال غير الحقيقة! وقد صاروا مثلك.. حديث الناس!

- هل تذكر منهم أحدًا؟

- أذكر القديس أوجستين.. وجان جاك روسو.. وأوسكار وايلد.. وأندريه جيد..

- هذه أسماء غريبة!! من أية قبيلة هي؟ وهل أصبحت الأسماء هكذا في زمانكم؟!

- هذه ليست أسماء عربية.

- أسماء أعاجم إذن؟!

- هذه أسماء أدباء أوربيين!

- ماذا تقول؟!

- العالم الآن ليس قبائل.. ولكنه قارات... وكل قارة تنقسم إلى دول.. وهؤلاء الأدباء من القارة الأوربية..

- دعنا من هذه التفصيلات وقل لي بماذا اعترف هؤلاء؟

– لقد اعترفوا بما حدث لهم فى صباهم.. تكلموا عما وقع عليهم من اعتداءات.. تحدثوا عن شذوذهم الجنسى!

– لقد فهمت أن بينهم قديسًا.. فهل اعترف القديس أيضًا بما جرى له بالتمام والكمال؟!

– بالتمام والكمال!

– وماذا قال الناس عنهم؟

– استنكروا نقائصهم.. وأشادوا بمزاياهم..

مع والبة:

– وماذا تريد منى الآن؟

– أريد أن تحدثنى عن حياتك مع والبة فى الكوفة.. حياة الليل وحياة النهار.. حياة الجد وحياة العبث.. حياة الصحو وحياة السكر والعربدة..

وهنا قاطعنى أبو نواس قائلاً:

– كفى.. كفى!! لقد صدعت رأسى بهذه الألفاظ الغريبة على أذنى.. قارة أوربية!! جان جاك روسو!! أوجستين!!

ويظهر أنه لا أمل فى الخلاص منك إلا بالاعتراف لك.. اسمع، ولا تقاطعنى:

- كنت وأنا فى البصرة أسمع عن والبة بن الحباب فقد كان الناس يتحدثون عن شعره ومجونه، وكنت طفلاً عندما قدم البصرة مع الحاكم الجديد محمد بن أبى العباس.

- فى أى سنة كان هذا؟

- فى سنة ١٤٧.

- لقد كان حاكم البصرة إذ ذاك محمد العلوى فيما أظن؟

- بعدما قتل محمد العلوى تولى الحكم بعده محمد ابن أبى العباس بأمر من الخليفة أبى جعفر المنصور...

- الذى أعرفه أن السفاح هو الذى تولى الحكم بعد محمد العلوى..

- لقد كان محمد بن أبى العباس سفاحًا حقًّا، فهل جعل التاريخ صفته اسما له، وعلمًا عليه فأصبحتم لا تعرفونه إلا باسم السفاح..؟

فى قصر السفاح :

واستطرد أبو نواس يقول :

- جاء الحاكم الجديد أو الأمير الجديد، ومعه جماعة من الشعراء بينهم حماد عجرد، ووالبة بن الحباب، وكان الناس يتحدثون عن نزوات الأمير، وإفراطه فى الشراب ومجالسه التى تغنى فيها القيان، وترقص الجوارى، وينشد الشعراء ما ينظمونه فى مدح الأمير، ووصف الخمر، والتشبيب بالغانيات، وكنا نسمع عما يجرى فى هذه المجالس من زندقة ومجون وفسق. وكيف أن الأمير كان يعطى الشعراء والمغنين والراقصات بلا وعى ولا حساب.. كان يحب زينب بنت سليمان. وكان يريد أن يعبر عن حبه لها بالشعر. ولكنه ليس بشاعر. فكان يعقد مجلس الأنس والشراب كل ليلة. وأمامه زينب وحولها الجوارى يرقصن، والقيان يغنين، والشعراء يجهدون قرائحهم للتعبير عن عواطف الأمير. فإذا نظم أحدهم أبياتًا أعطاها لمغنى الأمير.

- من هو مغنى الأمير؟

– اسمه «حكم» أليس معروفًا فى أيامكم ؟

– معروف فى الكتب !

– ألم أقل لك لا تقاطعنى حتى أستطيع مواصلة الحديث ؟

– أنا لا أقاطع ولكنى أستوضح.

– لقد نسيت ما كنا نتحدث فيه..

– كنت تتحدث عن مجلس السفلح وحبه لزينب.. وغناء حكم !

– نعم.. كان حكم يغنى للأمير ما ينظمه حماد أو والبة وبعدما تدور الكؤوس وتدور الرءوس.. يقف الأمير – وكان طويلاً عريضًا قوى البناء – فيهتز ذات اليمين وذات الشمال، ويضرب الأرض برجليه.. ويصيح فى حكم.. غنى. فإن أطربتنى أعطيتك كل الهدايا التى تلقيتها اليوم.

وكان دائمًا يغرق حكمًا، وحمادًا، ووالبة بالهدايا والعطايا. ونسمع نحن عن هذه المجالس كما لو كانت أسطورة أو خيالاً ! فى هذه الأيام عشقت والبة بالسماع. وتمنيت لو رأيته بعينى.

ولكن والبة لم يمكث فى البصرة طويلاً. وغاد إلى الكوفة دون أن أراه.

- هل أستطيع أن أسألك كيف استهل السفاح حكمه بهذه الخلاعة وقد جاء عقب مقتل العلوى؟ وكيف سكت الخليفة أبو جعفر على ذلك، والمفروض أنه عينه على البصرة ليمثل هيبة الخلافة ووقارها؟!

- إن محمد بن أبى العباس أو السفاح كما سماه التاريخ. كان فى مجالس لهوه حمامة وديعة، وكان فى مقعد حكمه أسدًا ضاريًا!

- ولكن سوء السمعة يقلم أظفار الأسد!

- إن السفاح ابن أخى الخليفة المنصور وقد أغضى عن مباذله ليتمادى فيها، ويجعل الناس يقارنون بينه وبين المهدى ابن الخليفة، فيرتفع المهدى فى أعينهم..

ونظر إلى أبو نواس فى غضب وقال:

- ولكن ما علاقة هذا بالكلام عن والبة؟

لا تعترضنى بمثل هذه الأسئلة العجيبة!! واعلم أن ذاكرتى

ليست كتابًا حتى تعى كل ما حدث فى عصرى.

- فلنعد إلى والبة.

- لقد عرفت كيف التقيت به فى الأهـواز، وأخـذنى إلى الكوفة، وقد وجدتها بلدة جميلة. جوها أرق من جو البصرة، وإن كانت تقل عنها فى فخامة الأبنية.

- أين أقمت فى الكوفة؟

- أقمت مع والبة فى بيت واحد. وكان بيتـه مـؤلفًا مـن ثلاث غرف. خصص لى إحداها. وكانت تخدمه سيدة عجوز تمت إليه بصلة القرابة. وكان يعاملنى كما لو كنت أخاه. وقد دامت صلة الأخوة سبعة أيام فقط!

- ثم ماذا حدث؟

- حدث ما قاله الناس عنا.

- وكيف حدث ذلك؟

- كان والبة حريصًا على ألا يعرف أصـدقاؤه شـيئًا عـن علاقتى به. وقد بقيت ثلاثة أيام لا أظهـر معـه. وكان أهـل الكوفة يتساءلون كلما رأونى: من هذا الشاب الغريب؟

وكثيرًا ما سئلت : من أى بلد أنا. ولماذا أنا هنا. فكنت أزعم أنى ابن أحد تجار البصرة. وجئت الكوفة لشئون تتعلق بتجارة والدى.

وفى أحد الأيام طرق بابنا الشاعر حماد عجرد وبصحبته مطيع بن إياس ويحيى بن زياد الحارثى. وفتحت لهم الباب فلما رأونى استغرقوا فى الضحك.. ونادوا بأعلى أصواتهم : اخرج لنا يا أبا أسامة.. !

- ومن أبو أسامة هذا ؟

- إنه والبة.. هذه كنيته. ألا تعرفون أن للرجل اسمًا وكنية ؟

- نعرف.. وعندنا من يقول عن حسن.. أبو على.. وعن إبراهيم.. أبو خليل !

- ألم أقل لك لا تقاطعنى ؟

واستمر فى حديثه يقول :

- .. وخرج والبة إلى ضيوفه فلما رآهم تبادل معهم الضحك.. وفهمت من حديثهم أن والبة أفهمهم ليلة أمس

أنه سيعتكف فى البيت اليوم لشعوره بدوار فى رأسه.. فلما جاءوا ليعودوه أدركوا أنه تخلص منهم ليكون لى وحدى، وأكون له وحده!

وقد قال حماد: لقد عرفنا الآن أنه ليس عندك دوار.. ولكن عندك هذا.. ومد سبابته نحوى! وقد غضبت من هذه المداعبة، وتركتهم ولزمت غرفتى فجاءونى ومعهم والبة وقالوا إن غضبى عزيز عليهم، ولم يزالوا بى حتى رضيت نفسى، وزال غضبى.

وفى اليوم التالى سهروا فى بيت والبة، وقد أحضروا قنينات الخمر، والنبيذ ومختلف الأطعمة وبعض المغنين والجوارى والغلمان، وأخذوا يشربون، ويرقصون، ويغنون حتى الصباح. ولم أشترك معهم فى الشراب. وكانوا يرمقوننى بنظرات غريبة.. لم أفهمها!

- لم تفهمها؟!

- أفهمها الآن.. لكنى إذ ذاك لم أكن أفهمها!

ومضى يقول: بعد يومين ذهبت مع والبة إلى منزل محمد ابن سيار بن يعقوب. وقد أعد مجلسًا اشترك فيه القيان،

والجوارى، والمغنون وأصحاب والبة من الشعراء والزنادقة. وكان بين الحاضرين ابن صاحب المنزل، فاسترعانى جماله. ونظمت فيه أبياتًا أنشدتها فى الحال. أذكر منها:

خلقت فى الحسن فردا   فما لحسنك ثانى
كأنما أنت شىء   حوى جميع المعانى

وأخذ الجميع ينشدون هذه الأشعار، ويغنونها وكان صاحب البيت وابنه مبتهجين بأشعارى، وبعد هذه الليلة ذاع اسمى فى الكوفة.

وقد خرجت وحدى فى الطريق. واختلطت بالناس فلاحظت أنهم يتهامسون ويتغامزون. وسألنى أحدهم: كيف حال الحبيب؟ وسألته: منَ هو الحبيب فقال: أبو أسامة.. فهممت بلطمه على وجهه، وحال الناس بينى وبينه. وقال لى شيخ كبير وقور.. يا بنى من وضع نفسه موضع الشبهة فلا يلومن إلا نفسه.. ووالبة شيخ الزنادقة والفساق وقد عشت معه فى بيت واحد فاعذر الناس إذا ظنوا بك الظنون!

وحتى هذه اللحظة لم يكن بينى وبين والبة ما يجرح العفة..

وطلب منى أن أصحبه فى رحلة صغيرة تستغرق يومين.. فذهبنا إلى بلدة «طيرناباذ» وهى تقع بين الكوفة والقادسية ودخلنا بيتًا يدار للشراب صاحبته رومية، عجوز، شمطاء، وقد رحبت بنا. ومدّت لنا بساطًا حوى الشراب والطعام وخصتنا بمكان بعيد عن بقية النزلاء.. وكان يقوم على خدمتنا فتاة صغيرة تلبس ملابس الغلمان، وقد أخفت شعرها تحت قلنسوة من القطيفة، فبدت كما لو كانت غلامًا حقًّا. حاولت أن أداعبها فنهانى والبة وقال: وماذا أصنع أنا هنا إذن؟

- فقلت: هل تريدها؟

- فقال: بل أريدك أنت!

ولما لاحظ دهشتى وخوفى قال لى إننى أمزح معك.. لا تخف! افعل بالفتاة ما شئت. ولكنك لن تستطيع شيئًا إلا إذا شربت كما أشرب، وكان قد شرب كوزين وشربت كوزًا واحدًا؟

- هل كنتم تشربون بالكوز؟

- نعم.. وهو يسع رطلاً.

وكان والبة قد اتفق مع الفتاة على أن تضاعف لى كمية

الخمر فكانت تغافلنى وتملأ كوزى كلما نقص، وقبل أن تلعب الخمر برأسى لعبت الخمر برأس والبة فقال :

- لا تضيع وقتنا . .

فنهرته بشدة . . فما كان منه إلا أن استل سكينًا من بين ثيابه وقال لى : إما هذا وإما هذا . .

فقلت له : اذبحنى !

فقام من مكانه. وقبلنى فى جبينى وبكى. وحاول أن يسترضينى .

قلت له : الناس إذن معذورون فيما يقولونه عنا. فسألنى : وماذا يقولون ؟ . . فرويت له ما يهمسون به. وما حدث لى مع الشيخ الوقور الذى حذرنى من صحبة والبة . . فقال مساكين سيذهبون إلى النار بآثامهم. هل حدث بيننا شىء مما همسوا به ؟ ولما قلت له لم يحدث شىء بعد. قال : مساكين . . سيذهبون إلى النار لأنهم كذبوا . . . لماذا لا ندخلهم الجنة بأن نجعل كذبهم صدقًا ؟

ثم أنشد هذين البيتين :

قم بنـا يـا نـور عيـنى نجعـل الشــك يقينـــا
فـإلى كم يــا حبيـــبى يـأثم القـائل فينــا..

وأطرق أبو نواس، وأغمض عينـه كمـن يتـذكر شـيئًا أو يبدى ندمًا وقال:

- منذ هذه الليلة.. أصبح الشك يقينًا!

وذهبنا إلى الكوفة وقد أضمرت فى نفسى أمرًا..

- وماذا أضمرت؟

- ألا ترحم شيخوختى؟ اتركنى اليوم.. وغدًا أقـول لك كل شىء!



«أبو نواس» يهرب من أستاذه !!

عصر الزندقة والمجون..

الشعر والأدباء والخليفة :

قلت لأبي نواس : أتذكر كيف انتهى حديثنا أمس ؟

- ذكرني !

- لقد حدثتني عن اعتداء والبة عليك في حانة «طيرناباذ» وكيف هددك بالسكين فقاومته، وأغراك بالشعر فلم تستطع أن تقاومه.. وكان ما كان وأصبح الشك يقينًا !

وأطرق أبو نواس برأسه إلى الأرض وأغمض جفنيه وأخذ يقول :

- عدنا إلى الكوفة، وقد أضمرت في نفسي أن أهرب من والبة، وأعود أدراجي إلى البصرة. فقد تحول إعجابي بوالبة إلى شعور بالمقت، والخزي، والانكسار. فكيف أعيش

معه فى الكوفة؟ كيف أظهر بين الناس؟ ماذا أقول لهم إذا غمزونى فى شرفى وعفتى؟ لقد كان يخجلنى كذبهم فكيف أواجه صدقهم؟

لم أكد أستأنف حياتى فى الكوفة حتى هدأت نفسى، فلم يقع شىء مما خفت أن يقع. لا غمز، ولا لمز، ولا أحد تحرش بى. وقد تعود أهل الكوفة أن يروى بينهم فكفوا عن مطاردتهم لى بالظن السيئ أو الظن الحسن.. لقد تركونى وشأنى. ولا أخفى عنك أنى دهشت من ذلك.. وكثيرًا ما كنت أسائل نفسى.. مابال الألسنة التى تصايحت بتجريحى عندما كنت إنسانًا بريئًا مظلومًا قد أصابها الخرس بعد ما لم أعد ذلك الإنسان البرىء المظلوم.

- لعل أهل الكوفة لم يعرفوا شيئاً مما حدث بينك وبين والبة فى طيرناباذ؟

- عرفوا كل شىء!

- لماذا سكتوا عنك إذن؟

- لأنى أصبحت مثلهم.

- ماذا تقول..؟ أهل الكوفة مثلك؟!

- عصرى كله مثلى!

- كيف تقول ذلك. وفى عصرك عاش أقطاب العلم والدين؟

وهنا قاطعنى أبو نواس قائلاً:

- لست أعنى بأهل عصرى أتقياءه ودهماءه، ولكنى أعنى شعراءه وأهل الفكر فيه.. لقد كانوا جميعًا مثلى فسوقًا، وزندقة، وإغراقًا فى اللهو والمجون.. أأنا وحدى الذى وصلت إليكم فضائحه؟ يا لظلم التاريخ!

- إننا نعلم أن عصرك كان حافلاً بالكفر والفسوق.. كفر العقول وفسوق الآراء والأفكار... أما كفرك وفسوقك فلم يقفا عند حد العقل والفكر بل تجاوزوا هذا الحد إلى أشياء يحمر لها الجبين! ومن أجل هذا خصك التاريخ بعنايته!

- بل خصنى بلعنته... ولو كان التاريخ عادلاً لوزع لعنته على شعراء عصرى جميعًا!

عشرون شاعرًا فى بيت فجور!

فقد كانوا كلهم فساقًا فجارًا. وقد عرفتهم واحدًا،

واحدًا، وشاركتهم فى إثمهم وفجورهم وصراحتهم وريائهم...
كنا نقضى الليل فى الحانات وبيوت اللهو. نشرب الخمر. وتشربنا الخمر.. نغتصب اللذة ونعطيها... وقد اجتمع فى ليلة واحدة عشرون شاعرًا وعالمًا، ولغويًا، وراوية، فأخذنا نغنى، ونرقص، ونجمش الجوارى والغلمان، والقيان. ولقد ظللنا فى غيبوبة.. حتى اليوم التالى.

- أين كنتم؟
- فى البصرة.
- فى أية حانة؟
- فى بيت عبد الله بن رامين.
- هل هو أمير؟
- أمير اللذات!
- ماذا تعنى؟
- ألا تعرف بيت عبد الله بن رامين؟
- لا أعرفه.
- لعلك لا تعرف أيضًا بيت الشيخ زريق؟

- ما هذا؟ ابن رامين.. والشيخ زريق؟!

- إن ابن رامين والشيخ زريق كانا يتنافسان على تهيئة أسباب اللذة لأشراف الكوفة وكان لكل منهما بيت يجمع الجوارى والغانيات والحاذقين فى الغناء والشعر والحسن والجمال.. وكان ابن رامين يمتاز بجواريه الحسان من أمثال سلامة الزرقاء. وربيحة، وسعدة!

- هل كان ابن رامين والشيخ زريق من هواة اللذة؟

- كانا يحترفان اللذة!

- وكان لهما أجر على ذلك؟

- أجر فاحش!

الجمال لا يتغير:

- كيف كان جمال النساء فى أيامكم؟

- الجمال لا يتغير؟

- ولكن النظرة إليه قد تتغير!

- ماهو جمال المرأة فى أيامكم أنتم؟

- رقة، وجاذبية، وانسجام فى القسمات والأعضاء!

- ولقد كان كذلك فى أيامنا.

- ألا تزال تذكر أوصاف ربيحة، وسعدة وسلامة الزرقاء ؟

- أذكر من ربيحة شعرها المجدول..

- وسعدة ؟

- كانت بيضاء ناعمة !

- وسلامة الزرقاء ؟

- أذكر ثيابها الزاهية.. ثيابها التى كانت تلتصق بها فتعبر عن مفاتن جسمها وتنفرج عن صدرها فتبوح بأسرار فتنتها.. وكان لها فوق شفتها العليا، شعر خفيف أشبه بالشارب !

- وماذا كنتم تصنعون يا معشر الشعراء فى هذه الليالى مع هؤلاء الغوانى ؟

- كنا نشرب وننظم الشعر للأمراء والأشراف. ونأخذ الجوائز والعطايا !

- وكانت الجوارى يأخذن جوائز وعطايا مثلكم ؟

– كن يأخذن الألوف.

– ألوف الدراهم..

– ألوف الدنانير فى الليلة الواحدة.

– هذه مبالغة..

– بل حقيقة... اسمع:

فى هذه الليلة التى أمضيناها فى بيت ابن رامين كان معنا «معن بن زائدة» و«روح» وكلاهما ثرى أمثل فغنت سلامة الزرقاء فبعث إليها معن كيسًا مملوءًا بالذهب وأفرغ الكيس بين يديها، وبعث إليها روح كيسًا آخر مملوءًا بالذهب وأفرغ الكيس بين يديها، وكان مع أحد الأشراف لؤلؤتان اشتراهما بأربعين ألف درهم فعرضهما عليها، واشترط لذلك أن تأخذهما بشفتيها من شفتيه!

ولم يكن عند ابن المقفع ذهب فكتب صكا نزل فيه عن ضيعته وأعطاه لسلامة!

– عبد الله بن المقفع يفعل هذا؟!

– نعم.



- صاحب الأدب الصغير؟!

- والأدب الكبير!

- ناقل كليلة ودمنة عن بيدبا فيلسوف الهند؟!

- هو... هو...

- هل كان ذلك قبل إسلامه.. أو بعد إسلامه؟

ابن المقفع بلا دين:

- لم يكن ابن المقفع مسلمًا.

- كان مجوسيًا وأسلم؟

- لم يكن يؤمن بشيء.. وقد أراد أن يكون ذا حظوة
ن الدولة، فذهب إلى الخليفة وقال له أريد أن أشهر إسلامى. ففرح الخليفة، وقال هذا نصر عظيم للإسلام ودعا الناس إلى قصره فى الصباح حتى يشهدوا إسلام ابن المقفع المجوسى.. واستبق ابن المقفع ليتناول طعام العشاء معه. ولما حضر الطعام لحظ الخليفة أن ابن المقفع يتلو صلاة المجوس قبل أن يمد يده إلى الصحاف. فقال له: ألم تشهر إسلامك؟ فقال ابن المقفع: لقد أمرتنى أن أرجئ ذلك إلى

الصباح. فقال له الخليفة : ولماذا تصلى الآن صلاة المجوس ؟ فقال : لقد كرهت أن أبيت ليلتى من غير دين ! والحقيقة أن ابن المقفع عاش عمره كله بلا دين.

وراح أبو نواس فيما يشبه الغيبوبة، ثم رفع رأسه وقال :

- فيم كنا نتحدث ؟

- كنت تتحدث عن الشعراء والأدباء. وكيف أنهم كانوا زنادقة مثلك... وقد حدثتنى عن ابن المقفع ولم تحدثنى عن سواه.

- ألم أحدثك عن والبة ؟

- حدثنى.

- ألاتعرف أنه كان أرق الشعراء ؟

- لا أعرف.

- ألم تعرف رأى عمارة بن حمزة فى والبة ؟

- من يكون عمارة بن حمزة هذا ؟

- حاكم الأهواز فى عام ١٥٨.

- وما هو رأيه فى والبة ؟

– لقد طلب إلى الخليفة المهدى أن يسمح لوالبة بأن يكون من جلسائه؛ فقال له المهدى : ولماذا يكون من جلسائى ؟ فقال عمارة : إنه أرق الناس شعرًا. فقال الخليفة : أسمعنا شيئًا من شعره. فأسمعه أبياتًا قال فيها والبة إن من عادته أن يدب إلى جلسائه ويثب عليهم إذا غلبهم النوم! فضحك المهدى وقال : « أوتريد أن نكون من جلسائه على هذا الشرط»؟

واستطرد يقول : ألم تسمعوا بداود بن رزين. والحسين الضحاك الأشقر الخليع. والفضل الرقاشى. والحسين الخياط. وعنان جارية النطاف. وإسماعيل القراطيسى. ورزين الكاتب؟ هؤلاء جميعًا هبطوا فى المجون واللهو والزندقة إلى أسفل درك..

مباراة فى المجون :

ثم قال :

– أردنا يومًا أن نجتمع فى بيت واحد منا لنتقرب من الشيطان... واتفقنا على أن من يجيد توجيه الدعوة شعرًا، نجتمع عنده فقلت :

ألا قوموا إلى الكرخ إلى منزل خمار
وبستان له نهر لدى نخل وأشجار
فإن أحببتموا لهوًا أتيناكم بزمار
وإن أحببتموا . . . .

ولعلك تذكر بقية الأبيات !

- أذكر أنك أحلتهم فى النهاية على ربة الدار !

ومضى أبو نواس فقال : أما داود فأنشد :

قوموا لمنزل لهو وظل بيت كنين
وقينة ذات دل وذات عقل رصين
تشدو بكل ظريف من محكم ابن رزين !

- هذا رجل مؤدب !

- لم يعجبنى أدبه. فقلت أرد عليه :

قوموا إلىّ ثقاق قوموا بنا.. وحياق!
قوموا نلذ جميعًا بقول هاك وهاق !
فإن أردتم فتاة أتيتكم بفتاة
وإن أردتم . . . .

ولعلك تعرف الباقى !

- أعرف أنك أحلت الإخوان فى النهاية على شخصك الكريم !! أما الحسين بن الضحاك الخليع فقال :

إلى الخليع فقوموا إلى شراب الخليع
إلى شراب لذيذ وأكل جدى رضيع
.... مثال كل رقيع !

- ياللخليع من رقيع !

ومضى أبو نواس يقول :

أما الرقاشى فقال :

لله در عقار حلت ببيت الرقاشى

وقال عمرو الوراق :

عوجوا إلى بيت عمرو إلى سماع وخمر

وقال الحسين الخياط :

قضت عنان علينا بأن تزور حسينا

وقالت عنان :

مهلاً أفديك مهلا عنان أحرى وأولى

بـأن ينـال لـديها أشـهى النعـيم وأحلى
فـإن عنـدى حـرامًا مـن الشراب وحـلا

وقال على بن الخليل :

ألا قـوموا جمـاعات أخـلائى فجيئـونى
إلى صـهباء كالمسـك وأبـكار مـن العـين
وإن أحببتمـوا ...

- خيبة الله عليه !...

وقال إسماعيل القراطيسى :

ألا قـوموا جمـاعات إلى بيـت القـراطيسى
فقـد جـاء لنـا عمـرو بـظبى أمـرد طـوسى
وقينـات مـن الحـور كأمثـال الـطواويس !

وقال رزين الكاتب :

ألا قـوموا جمـاعات لعنـدى لا إلى غـيرى
فعنـدى مـن إذا غـنى تهم الأرض بـالسير!

ولما ذكر لنا رزين كل ما عنده من أسباب اللـذات على اختلافها. قلنا له : اليوم يومك. فقـم بنـا، وصرنـا إليـه جميعًا.

وهنا سألت أبا نواس :

- وبعد أن صرتم إليه ماذا حدث ؟

- حدث لهم جميعًا ما رواه التاريخ عنى وحدى !

فسأله :

- هل كان هذا المجون والتهتك، والفجور، والابتذال فى الكوفة وحدها ؟

- كان فى كل مكان.. فى الكوفة.. فى البصرة.. فى بغداد.. كان فى الحانات.. فى الأديرة.. فى المساجد.. كان فى أكواخ الفقراء.. وقصور الأشراف.. كان فى قصر الخليفة..

فقلت له :

- لقد تشعب الحديث بنا.. كنت ستحدثنى عن هربك من الكوفة إلى البصرة.. وها نحن أولاء لا نزال فى الكوفة.

- لقد تركت الكوفة ونحن الآن فى البصرة !

- ولكنك لم تقل لى كيف تركت الكوفة ؟

- بعد أن أمضيت ثلاثة أعوام فى الكوفة شعرت بأن

شخصيتى تلاشت فى شخصية والبة. وكرهت أن أظل تبيعًا له، فاعتزمت العودة إلى البصرة لأستأنف فيها حياة جديدة. وخشيت أن أفاتح والبة بما اعتزمته فيحتجزنى معه، فاستأذنته فى السفر إلى البادية مع وفد من بنى أسد فأذن لى. وقد ألمت فى البادية سنة، تعلمت فيها كثيرًا من غريب اللغة ثم عدت إلى البصرة.

وهناك عرفت خلفًا الأحمر وكان عالمًا عظيمًا، وجلست منه مجلس التلميذ من أستاذه.

- هل كان خلف الأحمر مثل والبة؟

- كان شيئاً آخر.

- كيف كان؟

فقال أبو نواس:

- لقد طال الحديث.. أمهلنى إلى غد..

كيف.. ومتى.. أصبح شاعرًا؟

أبو نواس يتزوج

من هى زوجته.. ولماذا طلقها ليلة الزواج؟

قلت لأبى نواس: لقد سألتك عن أستاذك خلف الأحمر، وهل كان مثل أستاذك الأول والبة بن الحباب؟ وقلت لى إنه كان شيئًا آخر... فكيف كان؟

- ماذا تعنى بهذا السؤال؟

- أردت أن أعرف مدى زندقة خلف الأحمر، وقدرته على الفسق والمجون...

فقال أبو نواس: هل كل الناس زنادقة وفساق وأهل مجون...؟

- لم أقل ذلك ولكنك أنت الذى قلته... فقد أكدت لى أن أهل عصرك كانوا جميعًا هكذا...

فقال : ألا تعرف أن لكل قاعدة استثناء... ؟

- نعم لكل قاعدة استثناء.. وشذوذ !

فقال : لقد كان خلف استثناء من القاعدة، وشذوذًا فيها.. كان فى مستهل حياته مولعًا باللهو البرىء. وقد ركز لهوه فى اللغة، والشعر. فكان ينسب إلى الشعراء الأقدمين ما لم يقولوه، ويختلق روايات لا أصل لها، وكان بارعًا فى محاكاة فحول الشعراء... ثم أقلع عن هذا اللهو، ولما كبر كان مثال الجد والرزانة... وكان ورعًا فى أغلب أوقاته...

- كيف عرفته ؟

فقال : عندما عدت إلى البصرة، كنت قد عقدت العزم، على أن أبدأ حياتى من جديد. فلا لهو، ولا مجون ولكن توبة عن المعاصى، وتفرغ تام للعلم والجد، وقد أفادتنى رحلتى إلى البادية كثيرًا وكنت خلال هذه الرحلة مثال الاستقامة، كنت فى حالة ندم على ما فرط منى، وفى حالة تصميم على أن أنأى بنفسى عن مظان العبث والشبهات. وأن أعود إلى البصرة رجلًا فوق مستوى الظنون... فلم أكد أضع قدمى فوق أرض البصرة، حتى قصدت إلى أبى الحسن العطار الذى كنت

أعمل صبيًا فى دكانه، وكان منى بمثابة الوالد البار، وكنت ابنًا عاقًا... فقد تركته وهربت مع والبة، وكان ما كان. ولقد تلقانى أبو الحسن بالترحيب ولما سألته أن يعفو عنى.. قال إن عفوى دائمًا يسبق ذنبك! ودعانى إلى استئناف عملى فى دكانه فأخبرته بما اعتزمته من مواصلة الدرس، فسره ذلك، وشجعنى على أن أخصص كل وقتى للعلم ورأى أن أتتلمذ على خلف الأحمر لغزارة علمه، وتبحره فى الشعر واللغة، والإلمام بأنساب العرب.. فأخذت برأيه، وقصدت إلى خلف الأحمر فى مسجد البصرة وقد أبدى إعجابه بذكائى، وسرعة بديهتى، ولم أعرض عليه شيئًا من الشعر الذى نظمته وأنا فى صحبة والبة. فقد كان خلف يحب جزالة اللفظ، وكان شعرى فى ذلك الوقت سهلًا، رقيقًا، وكان كله عبثا ومجونًا، وبعد أن لازمت خلفًا الأحمر، حوالى العام استأذنته فى نظم الشعر فقال لى: لا آذن لك إلا أن تحفظ ألف مقطوع للعرب، ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة... فغبت عنه فترة طويلة، وجئته لأنشده ما حفظته. فسألنى: كم حفظت؟ فقلت: ألف مقطوع. فقال: أنشدها. فأنشدتها فى عدة أيام. وسألته أن يأذن لى فى نظم الشعر...: فقال: لا آذن لك

إلا أن تنسى هذه الأشعار كلها..

فقلت: هذا أمر يكاد يكون مستحيلاً، فقد أتقنت حفظها!! فقال: لا آذن لك حتى تنساها!

فذهبت إلى بعض الأديرة وخلوت بنفسى، بضعة شهور، استغرقت خلالها، فى تأملاتى ونسيت كل شىء... نسيت الشكل والصورة، واللفظ. ولم يبق فى خاطرى إلا الجوهر والمعنى، وجئت إلى خلف الأحمر وأخبرته أنى نسيت الألف مقطوع فسألنى هل نسيتها كلها؟ فقلت: نسيتها حتى كأنى لم أكن أحفظها قط. فقال: الآن.. انظم الشعر!

وقلت لأبى نواس ألا تذكر أول شعر نظمته عقب ذلك؟

فقال: لا أذكر... فقد كان ما نظمته إذ ذاك شعرًا سخيفًا، لا دافع له ولا غرض، كان محاكاة للأشعار التى زعمت لخلف الأحمر أنى نسيتها!

- كأنك لم تنسها؟!

- الحق أنى تناسيتها... وأظننى بعد ذلك قد نسيتها فعلاً!

- فى أى وقت كنت تنظم الشعر؟

فقال: لا أكاد أقول شعرًا جيدًا إلا إذا كانت نفسى راضية.

- هل كنت تختار مكانًا بذاته لنظم الشعر؟

- كنت أوثر النظم فى البساتين..

- ليلاً.. أو نهارًا؟

- لا يهمنى الليل والنهار، ولكن يهمنى أن أكون على حال أرتضيها، وقد قلت وأنا على غير هذه الحال أشعارًا لا أرضى عنها!

- كيف كنت تنظم الشعر؟

- كنت أشرع فى نظم القصيدة وأتركها أيامًا. ثم أراجعها فأمحو كثيرًا منها. ولا أبقى إلا على ما يروقنى.

- ولكن ما تنظمه هو خواطر نفسك فكيف تمحو هذه الخواطر؟!

- إن الخواطر تخطئ وتصيب وقد كنت أمحو ما أراه خطأ، وأثبت ما أراه صوابًا.

- هل كنت سريعًا فى النظم؟

- لم أكن سريعًا ولا بطيئًا. كنت بين السرعة والبطء... كنت وسطًا.

- هل كنت تعنى بشعرك فى الخمر؟

- كل العناية!

- وشعرك فى المجون؟

- بعض العناية!

- وشعرك فى الملح؟

- كنت أنظمه بلا عناية!

واستطرد أبو نواس يقول:

- لقد سئلت فى ذلك مرة فقلت إذا أردت أن أجد قلت مثل قولى:

لا أذود الطير عن شجر ... قد بلوت المر من ثمره

وإذا أردت العبث قلت مثل قولى:

طاب الهوى لعميده...

أما الذى أفنى فيه وحدى وكله جد، فإذا وصفت الخمر!

وقلت لأبى نواس : ولكن قصيدتك التى تقول فيها : لا أذود الطير عن شجر.. هى قصيدة كلها مدح، وكنت قد ذكرت لى أنك تنظم المديح بلا عناية!..

فقال : لقد قصدت المدح الذى لا يتجاوز طرف اللسان إلى القلب أو العقل.. أما أن تمدح رجلاً تحبه، أو تؤمن به فليس هذا مدحًا ولكنه شعر يرقى إلى شعر الخمريات والمجون والحب والزندقة!

- وهل كنت تحب الخصيب حاكم مصر إلى درجة أن تقول فيه مثل هذا الشعر؟

فقال :

- لم أقل هذا الشعر فى الخصيب، ولكن قلته فى العباس بن عبيد الله بن أبى جعفر المنصور، ولقد أحببت العباس حقًا.

- هل حفظت أشعارًا أخرى غير ما أوصاك خلف الأحمر أن تحفظه؟

فقال : حفظت سبعمائة أرجوزة من أراجيز الشعراء. وما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب، بينهن

الخنساء وليلى الأخيلية، وليلى العامرية.. فما ظنك بالرجال؟!

- كيف كان رأى معاصريك فى شعرك؟

فقال: كان بعضهم يحسدنى على مكانتى وذيوع اسمى، وإقبال جمهرة الناس على ترديد شعرى، وكان بعضهم الآخر يرانى أشعر الشعراء على الإطلاق.. وغيرهم اعترفوا بسمو مكانتى فى الشعر ولكنهم جبنوا عن الرواية عنى!

- هل تذكر أحدًا من حاسديك؟

فقال: ولا أحد يذكرهم!!

- والمعجبون بك هل تذكرهم؟

فقال: ألم يرو التاريخ أسماءهم؟

فقلت: روى التاريخ أن ابن عائشة سئل عن أشعر المحدثين فقال الذى يقول:

كأن ثيابه أطلعن   من أزراره قمرا
يزيدك وجهه حسنًا   إذا ما زدته نظرا

وأنت صاحب هذه الأبيات، فأنت أشعر المحدثين فى رأى ابن عائشة.

فقال أبو نواس : وكان الأصمعى يعجب بشعرى ويسمينى الشاطر. وهل سمعتم عن شاعر اسمه كلثوم بن عمرو؟

قلت : أنا شخصيًا لم أسمع عنه.

فقال : كان يلقب بالعتابى!

فقلت : سمعت عنه... كان شاعرًا متحيزًا للبرامكة. أليس كذلك؟

فقال : كان كذلك فى أول الأمر ثم ساءت الحال بينه وبين البرامكة.

- لماذا سألتنى عن العتابى هذا؟

فقال : كان شاعرًا مطبوعًا رقيقًا وكان يسمينى الخبيث. ويقول : لو أدرك الخبيث الجاهلية لما تفوق عليه أحد!

قلت : إن التاريخ حدثنا عن إعجاب أبى عبيدة بشعرك. كما حدثنا أن أبا عمر الشيبانى العالم النحوى كان يقول : أشعر الناس فى وصف الخمر ثلاثة : الأعشى، والأخطل، وأبو نواس.

وضحك أبو نواس وقال :

- أعرف أبا عمر الشيبانى هذا وكنت لا أستحسن

آراءه... فقد كان يعجب بالشكل. وأنا لا أحب الشكل إلا فى الوجه والبدن... أما الأدب فإنى يعجبنى فيه الشكل والجوهر معًا!

- ولكنه لم يخطئ فى حقك.

فقال: بل أخطأ إذ جعلنى فى الخمريات واحدًا من ثلاثة!

- ما مكانك فى شعر الخمريات إذن؟

فقال: واحد فقط... وقد سبق أن سألنى سليمان ابن أبى سهل: ما الذى أستجيده من شعرى؟ فقلت له أشعارى فى الخمر لم يقل أحد مثلها.. وأشعارى فى الغزل فوق أشعار الناس. وهما أجود شعرى!

واستطرد أبو نواس يقول:

- ألا تعرف الثورى؟

ولما بدا له أنى لا أعرفه مضى فقال: كان من الأئمة الأعلام فى الحديث وأراد بعض الحاقدين أن ينالوا منى فى مجلسه فقال الثورى: كيف تنالون من رجل يقول مادحًا:

يخافه الناس ويرجونه كأنه الجنة والنار!

ويقول مادحًا أيضًا :

فما فاته جود ولا حل دونه ... ولكن يسير الجود حيث يسير

ويقول فى الخمر :

فتمشت فى مفاصلهم ... كتمشى البرء فى السقم!

وكان يقول : والله إن أبا نواس لحق من كانوا قبله، وفات من جاءوا بعده.

قلت : ولقد نقل التاريخ إلينا أن ابن الأعرابى امتحن جلساءه فى أشعر الناس فاستشهد كل منهم ببيت من شعرك.

فقال ضاحكًا : يظهر أن ابن الأعرابى كان لا يجالس إلا من يفهمون... وسألنى هل تذكر شيئًا مما استجادوه من شعرى ؟

قلت : أذكر هذا البيت فى وصف كأس الخمر، وقد تصاعد حببها من خلالها :

كأن كبرى وصغرى من فقاقعها ... حصباء در على أرض من الذهب

فقال : ألم يحدثكم التاريخ عن رأى أبى العتاهية فى شعرى ؟ لقد سئل من أشعر الناس ؟ فقال : جاهليها ؟ أو

إسلاميها ؟ أو مولدها ؟ فقيل له : نريد أشعرهم جميعًا. فقال أشعرهم من يقول :

إذا نحن أثنينا عليك بصالح فأنت كما نثنى وفوق الذى نثنى
وإن جرت الألفاظ يومًا بمدحة لغيرك إنسانًا.. فأنت الذى نعنى

والذى يقول فى الزهد :

وما الناس إلا هالك وابن هالك وذو نسب فى الهالكين عريق

وأنا صاحب هذا الشعر كما تعلم.. أم تراك لا تعلم ؟

قلت : أعلم.

ورويت له ما ذكره الجاحظ من أنه سمع ابن النظام ينشد لأبى نواس شعرًا فى الخمر ويقول : كأن هذا الفتى تجمع له الكلام فاختار أحسنه !

فقال أبو نواس : هذا صحيح.

وسألته : أيهما الصحيح رواية الجاحظ أم رأى ابن النظام.

فقال ضاحكا : كلاهما صحيح !

قلت : ولقد قال بعض النقاد إن المعانى حبست عليك وحدك. فأخذت منها حاجتك وفرقت الباقى على الناس !

وهنا غمر البشر وجه أبى نواس وبدا كما لو كان شبابه قد عاد إليه، وقال: نسيت أن أذكر لك أن أبا العتاهية كان يقول:

سبقنى أبو نواس إلى أبيات وددت أنى سبقته إليها بكل ما قلته فإنه أشعر الناس فيها... ومن هذه الأبيات قولى:

يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر!!

وقولى:

وما الناس إلا هالك وابن هالك ... وذو نسب فى الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو فى ثياب صديق

وسألت أبا نواس: كيف عرفت أبا العتاهية؟!

فقال: عرفته وكنا فى سن الكهولة، اجتمعنا يومًا عند إسحاق بن إبراهيم بن ميمون وكلانا لا يعرف الآخر. فلما عرفنى أبو العتاهية انتقل إلى مكانى، وصافحنى، وجلس بجوارى، واستنشدنى الشعر، فأخذت أنشد أشعارًا لى سخيفة هازلة، فأنشدنى شعرًا له وقلت له: هذا قول ممتع. فقال: هو خير مما أنشدتنى اليوم.. وعجب من أن أحفظ شعرى السخيف ولا أذكر شيئًا من شعرى الجيد ثم سألنى عن

قصيدتى فى الفضل بن الربيع التى قلتها مستشفعًا به للخروج من السجن، فأنشدتها له وفيها أقول :

قد كنت خفتك ثم أمننى   من أن أخافك خوفك الله

فقال أبو العتاهية : ما عليك ألا تقول بعد هذا شيئًا.. قد كنت والله أحب أن أسبقك إليه!

وقلت لأبى نواس : أوَلم يكن لك فى البصرة غرام طبيعى أو شاذ؟!

فقال : دعنا من هذا الحديث.

قلت : لقد علمنا أنك أحببت عنان.

فقال : بل جننت بها! ولكنى لا أريد أن أتكلم عنها.. ألا يهمك أن تعرف كيف ذهبت إلى بغداد.. كيف عرفت هارون الرشيد؟! كيف جذبتنى دار السلام إليها بأضوائها، وخمرها، وغلمانها وقيانها وعلمائها وشعرائها.. بملحديها ومؤمنيها؟

قلت : إن هذا يهمنى وأريد أن تحدثنى عنه.. ولكن هناك شيئًا هامًا يجب أن نزيح عنه الستار.. وهو حبك لعنان الجارية، الشاعرة الساحرة!

فقال : إن غـرامى فى البصرة ليس لـه أول ولا آخـر. . وأخشى إذا تحدثنا عن الغـرام أن تضـطرنى للحـديث عـن الزواج !

فسألته : هل تزوجت ؟

فقال : إما أن نتحدث اليوم عن الحب أو نتحـدث عـن الزواج ؟

فقلت : بل حدثنى عن الزواج !

فقال : عنـدما عـدت إلى البصرة، تجمـع أهلى حـولى، وأسدوا لى النصيحة، أن أحتشم، وأصطنع الوقار، وقلت لهم إن هذا ما صممت العزم عليه. فقالوا إن الزواج سيساعدك على تنفيذ عزمك وسألونى : ماذا لو تزوجت امـرأة مـن أهـل بيتك حتى تقلع عن بعض ما أنت فيه. فعارضت فى الـزواج ولكنهم ما زالوا بى حتى زوجونى جارية من أهـل بيـتى وهـم يعتقدون أنها جميلة، وربما كانت كذلك.

ولكنى لم أكد أدخل بها، ليلـة الـزواج حـتى أعـرضت عنها، وفررت من البيت واجتمعت بأصدقائى. . .

قلت : أصدقاء أم صديقات ؟

فقال : أصدقاء. رجال وأشباه رجال !

ولقد أرسلت إليها أبياتًا أعلنت فيها طلاق منها. . قلت :

. . . . تحملى طـالقة واذهـبى !

مرى فكم مثلك من حـرة رائعة لم تك مـن مـذهبى !

لا أدخل الجحر يدى طائعًا أخشى من الحية والعقرب !

ولم أرها بعد ذلك أبـدًا . .

قلت : هل تزوجت مرة أخرى ؟

- كلا !

قلت : ولكنك أشرت فى شعرك إلى أن لك أولاداً !

- لا أظن !

قلت : ألم تقل :

ألا إن بنتى بنت مـن لم يـر ابنـة ولا ابنًا سواها قد تـبر وتـؤنس ؟

فقال : هذا حديث يطول شرحه . . وكنت أود أن ننتقـل فورًا إلى بغداد . . دار السلام. معقل الخلافة . . مـدينة العـلم واللهو . .

قلت : سننتقل إليها حتمًا . . ولكن بعد أن نعرف من هم

أولادك، وكيف كان حبك لعنـان، ومجـونها معـك، وهجـوها لك !!

فقال : ليس اليوم ولا غدًا.

قلت : بل غدًا. . .

فقال : إن شاء الله !

عنان التى أحبها أبو نواس!!

أبناؤه.. ونساؤه.. وبنات أفكاره؟

قلت لأبى نواس: ستحدثنى اليوم عن أبنائك.. فقاطعنى قائلاً: أى أبناء؟

- ألم تنجب أبناء؟

فقال: لقد تزوجت مرة واحدة، وطلقت زوجتى ليلة الزواج.. طلقتها قبل أن أدخل بها. فلم أنجب منها بنات ولا بنين.

- ألم تعرف نساء عن غير طريق الزواج؟

- عرف كثيرات!

- لعلك أنجبت منهن أولادًا.

- لا أظن!

- ولكنك ذكرت فى شعرك أسماء أولادك..

فقال: وما هو هذا الشعر؟

– ألم تقل وأنت فى ضيافة الخصيب بمصر :

«لباب» تكبرى فوق الجوارى فإن أباك أعتبه الزمان ؟

وفى ديوان شعرك رثاء لولدك الذى مات : «على حين كانت كبيرة [illegible]».

وفى ديوانك أيضًا أبيات عن بنتك «بر» أو «برة» وقد طلبت إليها أن تبرك حيًّا وميتًا.

ولما أطلق الأمين سراحك من السجن الذى أودعك فيه هارون الرشيد قلت : «لولا أبو العباس ما نظرت عينى إلى ولد»! فمن هى بنتك «لباب» وبنتك «برة» ومن هو ولدك الذى مات بعد ما بلغت المشيب.. ومن هو ولدك الذى نظرت إليه بعدما تفتحت لك أبواب السجن ؟»

فقال : أخشى أن أفجعك إذا قلت الحقيقة !

– افجعنى.. وقل الحقيقة !

فقال : الحقيقة أنى لم أنجب أبناء..

– فماذا تعنى بذكر الولد فى معرض الحنين، وفى معرض الرثاء

فقال : ربما كان ذلك خيالاً . . أو تشبيهًا . . أو محاكاة !

- وبنتك « لباب » . . وبنتك « برة » . . هل هما أيضًا من بنات أفكارك ؟

فقال : هل تريد أن أفجعك مرة أخرى ؟

- افجعنى !

فقال : صدقنى إذا قلت لك إنى لم أسلك طريقًا يؤدى إلى أن أنجب أولادًا . .

قلت : تعنى أنك لم تسلك طريق الحلال ؟

فقال : ولا طريق الحرام !

- والنساء اللاتى عرفتهن ؟

فقال : لقد عاملتهن كما لو كن غير نساء !

- ماذا تعنى ؟

فقال : أنت تعلم ماذا أعنى !

- ولكنى أريدك على أن تفصح . . . فدع الخجل وتكلم بصراحة !

فقال : إن من يعمل بصراحة ، لا يخجله أن يتكلم

بصراحة. ولكن التلميح كثيرًا ما يغنى عن التصريح. والتلميح فى هذا الموطن بالذات يغنى ولا شك عن التصريح!

– لماذا إذن أكثرت من الإشارة فى شعرك إلى أن لك بنات وبنين؟!

فقال: بعض هذه الإشارات من قبيل المباهاة أو استدرار العطف، مثل إشارتى فى قصيدتى التى قلتها بعدما أطلق الأمين سراحى من السجن الذى أودعنى فيه أبوه هارون الرشيد.. فقد قلت:

إنى أتيتكمو من القبر والناس مجتمعون للحشر
لولا أبو العباس ما نظرت عينى إلى «ولد» ولا وقر

فقد تشفعت بالفضل بن الربيع لدى الأمين كى يخرجنى من السجن.. وأردت أن يشعر الأمين بأنه أطلق سراح رجل له أولاد يحن إليهم ويحنون إليه. وكان هذا شيئًا مألوفًا عندنا. مثل التفاخر بالآباء والأجداد. وما أكثر الذين تباهوا بآبائهم وهم أنفسهم لا يعلمون شيئًا عن هؤلاء الآباء!

– وماذا عنيت بالأبيات التى تمثلت فيها أن بينك وبين الدهر ثأرًا لوفاة ابنك «على حين حانت كبرة ومشيب»؟

فقال : هذه أبيات رثيت فيها صديقًا يصغرنى سنًا. فهو في منزلة ولدى، لو أن لى ولدًا.

- وأبياتك فى « برة »؟

فقال : لقد نسيت المناسبة التى قلت فيها هذه الأبيات.. ولعلها قيلت على لسان أحد من أصدقائى. فقد كنا نقول الشعر على ألسنة غيرنا.

- ومن « لباب » التى تكلمت عنها فى مصر؟

فابتسم وقال : هل تريد أن أفجعك مرة ثالثة ؟

فقلت : افجعنى.. ثالثة.. ورابعة.. وعاشرة !

فقال : أنت تعلم أنى زرت مصر، قاصدًا أميرها الخصيب.

- فى أى سنة تمت هذه الزيارة فقال حوالى ١٨٦.

وأطرق طويلاً.. فسألته : فيم تفكر؟

فقال : إن أسئلتك الاعتراضية أنستنى ما كنا نتحدث فيه !

- كنا نتحدث عن زيارة مصر لمناسبة ابنتك المزعومة « لباب » !

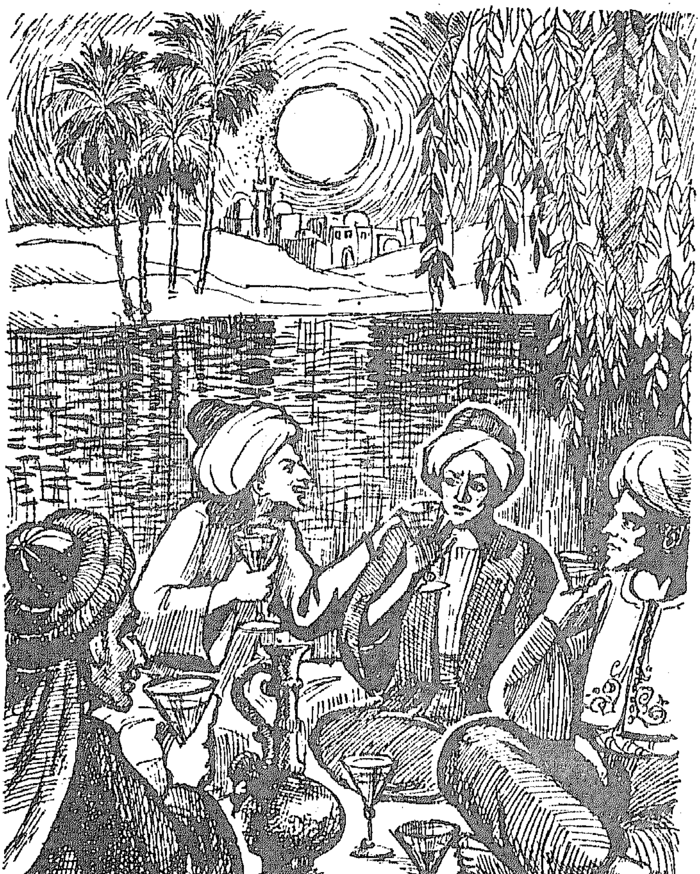
فقال: لما زرت مصر وقابلني أميرها، وأنشدت بين يديه قصائدي. تجمع الشعراء حولي. بعضهم أبدى إعجابه بي. وبعضهم أعلن تبرمه بي، وبعضهم أخفى كراهيته لي.. ولكنهم جميعًا كانوا يتوددون إليّ وخاصة بعد أن اشترطت على الأمير أن يمنحهم الجوائز على مالم يسمعه من أشعارهم!

- لقد سبق أن حدثتني عن هذه المسألة.

فقال: لاتعترضني حتى أستطيع مواصلة الحديث.

- لن أعترضك!

فقال: أردت أن أنقل إلى مصر جو بغداد، والبصرة، والكوفة.. أردت أن أجعل من مصر مسرحًا للفسوق، والمجون، والزندقة، وخيل لي أنه من اليسير على مثلي أن يحظى بما يشاء من لهو بريء وغير بريء... فأنفقت المال على من حولي من الشعراء والأدباء.. أنفقته بسخاء وجنون! طلبت الخمر فوجدتها.. وجدتها معتقة.. وطازجة، وجدتها عصير بلح، ونبيذًا.. طلبت النساء فوجدتهن.. ثم تجرأت وبحثت عن الغلمان... وذهبت مع جماعة من أهل مصر إلى مكان ناء على شاطئ النيل، بالقرب من الفسطاط آملاً أن أجد هناك بغيتي وإذا ثلة من الشباب الحلو الرقيق البض..



قد أعدوا لنا بساط الشراب.. على حافة الماء بين مروج النخيل والشجر، فى ضوء القمر.. فى ساعة السحر! وقبل أن تلعب بى الخمر كنت قد لعبت بها، وهممت بمعانقة أحد الشبان وإذا هم جميعًا يمسكون بتلابيبى ويطرحوننى أرضًا، وينهالون على جسمى ضربًا بالسياط، والعصى، ويتركوننى ملقى فى الطريق بين الحياة والموت... وبحثت عمن كانوا معى فإذا هم قد تفرقوا جميعًا، ولما أصبح الصباح، أخذت أجمع شتات نفسى، وشتات جسمى، وسرت على قدمى، حتى وجدت مركبًا عدت فيه إلى منية الخصيب، وهناك أقمت فى رحاب الخصيب بقية أيام الزيارة، ولم أكاشفه بما حدث لى، ولما تركت مصر، أخذت معى حقدى عليها، وعلى أهلها، فزعمت أنى أحببت فيها وعاشرت نساءها، وأنجبت منهن بنات كثيرات.. وجعلت من بينهن «لباب» هذه التى وردت فى بعض أشعارى!

وابتسم وقال: لست الآن حاقدًا على مصر! ولهذا قلت لك الحقيقة!

قلت: لقد وعدتنى أن نذهب إلى بغداد.. ولكنى طلبت

إليك أن تحدثنى أولاً عن زواجك وأولادك وعن علاقتك بعنان.. ولقد حدثتنى عن الزواج والأولاد.. وبق أن تحدثنى عن علاقتك بعنان!

فقال: هل يعنيك أن أحدثك عن عنان!

يعنينى ذلك ويسرنى... ولاشك أن الحديث عن عنان يعيد إليك شبابك.

فقال: لعنة الله عليها..

ـ أتلعنها بعد ما أحببتها!

فقال: لأنى أحببتها.. ألعنها!

ـ ألم تكن تحبك؟

فقال: كانت بذيئة، هجاءة، سليطة اللسان.. وقد عرفتها، وهى جارية من جوارى «الناطق» ونمت المودة بينها وبينى، فقد كانت ذكية، رشيقة، جذابة. وكانت تقول الشعر، وتروى كثيرًا من أشعار القدامى والمحدثين، وبقدر ما أشادت بى، وهتفت بذكرى، قبل أن نلتقى.. هاجتنى، وهجتنى، وأصبحت سوط عذاب يلهب سمعتى، ويمزق عرضى، وقد ظلت العلاقة قائمة بيننا فترة طويلة، والحق أنى

لم أضق بسفاهتها إلا عندما تناولت أمى بلسانها الوقح البذىء.

حدث ذلك يوم أن سلطت سفهاء الكرخ والعيارين أن يمشوا إلى فى جمع كبير وينشدوا أبياتًا سخيفة قالت فيها:

أبو النواس اليمانى وأمه جلبان!

إلى آخر ما قالت.

- من هم العيارون هؤلاء؟

فقال: العيارون غلمان لا عمل لهم إلا السب والشتم وقد أفهمتهم أن أمى كانت تجمع أولاد الزنى فى بيتها وتربيهم، لغرض فى نفسها! وشاعت هذه القصة، وتعقبتنى فى بغداد...

- أيتها التى تعقبتك إلى بغداد.. القصة أم عنان؟

فقال: كلتاهما.. فإن عنان أيضًا قد جاءت بغداد، ولما عرف الفضل بن الربيع أنها أشاعت عنى ما أشاعت، قال لى: إذا أخجلتها أمامنا فلك عندى ما تريد.. واجتمعنا فى مجلس وحاولت أن أخجلها بذكر أشياء يندى لها الجبين.. ولكنها كانت امرأة وقاحًا فقد أخجلت الرجال ولم تخجل..

أقول لها أريدك يا عنان.

فتقول : وأين ذهبت أمك.. إنها بك أولى!

- هذه المناوشات جرت بينك وبينها أمام الفضل بن الربيع ؟!

فقال : وأمام الرشيد أيضًا..

- هارون الرشيد الخليفة ؟!

فقال : نعم!

- ولو تركتنى من حديث عنان لذهبنا معًا إلى بغداد، وعشنا فى قصر الخليفة وقصور البرامكة، وشهدنا المعركة الكبرى بين حزب العزب وحزب الفرس، ونكبة البرامكة.. وأحاديث الهوى، والعشق والغرام.. ولكنك تأبى إلا أن نتحدث عن عنان!

- دعنا من عنان ولنذهب الآن إلى بغداد.

فقال : الآن لا أستطيع... غدًا نذهب إلى بغداد!

المدينة التى لايموت فيها خليفة أبدًا

أولى ليالى أبو نواس فى بغداد..

قال أبو نواس : لقد اتفقنا على أن نذهب إلى مدينة السلام.. أليس كذلك ؟

- اتفقنا على الذهاب إلى بغداد.

فقال : إن بغداد هى دار السلام. هكذا سماها من بناها !

- ومن الذى بناها ؟

فقال : الخليفة أبو جعفر المنصور.

- فى أى سنة كان ذلك ؟

فقال : بناها فى سنة ١٤٥ أو نحو ذلك.

- كأنك أكبر منها سنًّا !

فقال : هى أقدم منى مولدًا.

- ولماذا سماها المنصور مدينة السلام، وقد كان عهد خلافته، محفوفًا بالغدر والختل وسفك الدماء ؟

فقال : لقد سماها الفرس بغداد، وقيل فى تعليل ذلك أن أمير المشرق أهدى إلى كسرى ملك الفرس عبيدًا وخصيانًا، فأقطعه كسرى أرضًا وسماها بغداد ومعناها «عطية الصنم» أى هدية كسرى المعبود.. إذ أن «بغ» بالفارسية صنم و«داد» عطية. ومن أجل هذا كان الفقهاء يكرهون اسم بغداد فينطقونها بغدان.. وبغداذ.. إلى أن جاء أبو جعفر المنصور، وأنشأ فيها حاضرة الخلافة، فسماها مدينة السلام. وقد أحضر لها المهندسين وأهل المعرفة بالبناء وتوزيع المساحات وتقسيم الأرض، وصور لهم صورة المدينة فى نفسه، لينقلوها على الطبيعة.. ثم أحضر الصناع والنجارين، والحفارين، والحدادين، والفعلة، وأجرى عليهم الأرزاق... وكتب إلى كل بلد أن يرسل إليه من يفهمون فيه أمور البناء، ولم يبدأ العمل فى إنشاء المدينة حتى تكامل عند الخليفة من أهل المهن والصناعات ألوف كثيرة ثم اختط المدينة، وجعلها مدورة، ويقال إنه لا يوجد فى أقطار الدنيا كلها مدينة مدورة سواها!

- وهل كان فى بلاد الخلافة فى ذلك العهد، أهل معرفة بالبناء ؟

فقال: إن الخلافة فى ذلك العهد كانت مملكة يمتد سلطانها إلى مصر والشام غربًا، وإلى الهند والصين شرقًا. وكان يخضع لنفوذها بلاد لاحصر لها فى الشمال والجنوب. ومن هذه البلاد جميعًا، أى من الدنيا كلها.. جاء أهل المعرفة بالبناء فكأنما اشترك فى بناء بغداد كل أصحاب المعرفة والحذق والمهارة.. ولهذا كانت بغداد للناس جميعًا.. فيها العرب والترك والفرس والهنود.. فيها أبناء موسى وعيسى ومحمد.. ومن على دين المجوس.. ومن ليس لهم دين.. فيها سلالة زرادشت وبوذا وكونفوشيوس.. فيها حضارات مصر، والهند والصين.. فيها صراع مستعر بين العقيدة والفكر.. بين الفلسفة والتصوف.. بين الاستبداد والحرية.. بين الفوضى والقانون.. بين القيود والأيدى.. بين السياط والظهور.. بين الشعراء والشعراء.. والعلماء والعلماء.. بين المتماسكين والمنحلين.. بين المؤمنين بالله والمؤمنين بالشيطان.. والكافرين بالله والشيطان معًا!

ومضى أبو نواس يقول: هل تعلم لماذا بنى أبو جعفر هذه المدينة؟

- يسرنى أن أعلم..

فقال : لقد خشي على حياته من الهاشميين، فأراد أن يجعل لخلافته مقرًا لا يصل إليه العدو، وقد استشار المنجمين فاختار له أحدهم مكان بغداد، واسم هذا المنجم «نوبخت» وقد جعل للمدينة أربعة أبواب فإذا جاء أحد من الحجاز دخل من باب الكوفة... وإذا جاء أحد من المغرب دخل من باب الشام.. وإذا جاء أحد من الأهواز والبصرة وواسطة اليمامة والبحرين دخل من باب البصرة.. وإذا جاء أحد من المشرق دخل من باب خراسان.. وكان على جميع أبواب المدينة عسكر كثير.. وحراس شداد. وأحيطت المدينة كلها بالأسوار.. وشقت فيها الخنادق وكان باب قصر الخليفة مقابلا لباب خراسان. وقد بنيت على كل باب من أبواب المدينة قبة عالية.. وبين كل بابين ثمانية وعشرون برجًا!

ومن أين جاءته فكرة إقامة أبواب للمدينة... هل جاءته من المهندسين أو جاءته من المنجمين؟

فقال : أعتقد أن الفكرة جاءته من المنجمين.. فقد كان أبو جعفر يؤمن بالتنجيم والخرافات، والأساطير والأحلام. كان يروى عن أمه أنها لما ولدته أحست أن أسدًا خرج منها

وهو يزأر !! وكان يروى أيضًا أن النبي محمدًا عليه السلام كان قد قال لأمه إنك حامل بغلام.. فإذا وضعته فأتيني به. فلما وضعته أتت به رسول الله فأذّن فى أذنه اليمنى وهمس فى أذنه اليسرى. ثم قال لها : اذهبى بأبى الخلفاء.. فلما علم العباس أبو جعفر بذلك.. أتى رسول الله فأجلسه الرسول عن يمينه وقال : «هذا عمى فمن شاء فليباه بعمه !» ثم قال للعباس إن الخلافة لك ولولدك. منهم السفاح.. ومنهم المنصور ومنهم المهدى !

- وهل صدقت هذه الروايات ؟

فقال : ليست هذه كل روايات أبى جعفر عن نفسه.. فقد كان يروى أنه رأى النبى فى المنام وأنه أوصاه بأمته وقال له : «خذها إليك يا أبا الخلفاء إلى يوم القيامة !» وقد أمر بكتابة هذه الرؤيا فى ألواح الذهب، وعلقت الألواح فى أعناق الصبيان !

- وهل كان يعتقد أنه سيظل خليفة إلى يوم القيامة ؟!

فقال : نعم ؟

- وهل كانت رعيته تعتقد ذلك ؟!

فقال: صدق الناس ذلك عندما كانوا أطفالاً.. ثم أصبحوا عقلاء!

واستطرد أبو نواس يقول:

لقد كان أبو جعفر يؤمن بأنه سيشهد بنفسه يوم القيامة.. ولما انتهى من بناء مدينة السلام دعا إليه بعض المنجمين وقال لأحدهم خذ الطالع، فنظر المنجم فى طالع الخليفة وقال له:

- إن النجوم يا أمير المؤمنين تدل على طول زمان المدينة، وكثرة عمارتها، وانصباب الدنيا إليها وفقر الناس إلى ما فيها.

ثم توقف المنجم عن الكلام وصوب عينيه فى أمير المؤمنين وقال له: أبشرك - أكرمك الله - بعلامة أخرى من علامات النجوم وهى أنه لايموت فى هذه المدينة خليفة أبدًا؟

- وماذا صنع الخليفة للمنجم؟ ألم يأخذ عنقه جزاء له على استغفاله أمير المؤمنين، وخليفة النبى، وابن أخى رسول الله؟

فقال أبو نواس:

لقد ابتسم الخليفة للمنجم وقال: الحمد لله.. ذلك

فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم!

وأين مات أبو جعفر؟

فقال: ... لم يمت فى بغداد خليفة منذ بنيت إلا الخليفة الأمين.. أما أبو جعفر المنصور فقد مات وهو فى الحج، بعدما دخل الحرم..

- لقد تولى المهدى الخلافة بعد المنصور فهل مات في الحج أيضًا؟

فقال: مات المهدى فى بلدة اسمها «ماسيذان».

- والهادى أين مات؟

فقال: مات الهادى فى بلدة «عيساباذ».

- وهارون الرشيد؟

فقال: مات هارون الرشيد فى بلدة «طوس».

- إذن صدق المنجمون..

فضحك أبو نواس وقال: بل كذب المنجمون ولو صدقوا.. كما قال محمد عليه السلام.. فما حدث ليس إلا مصادفات، ومن يدرى لعل كثيرين من الخلفاء ممن عاشوا بعدى قد ماتوا وهم فى بغداد.

ـ لقد حدثنا الخطيب البغدادى مثل هـذا الحـديث وقـال إن الخليفة المأمون مات بعيدًا عن بغداد، وإن المعتصم مـات فى بلدة «سر من رأى»، وكل من ولى الخـلافة عقبـه مـاتوا بعيدًا عن بغداد ما عدا المعتمد والمعتضد والمكتفى فإنهم مـاتوا فى قصور بغداد!

فقال أبو نواس: إن من يتأمل فى الطريقة التى بـنى بهـا أبو جعفر مدينة بغداد يعتقد أنـه أراد أن يحصـن نفسـه مـن أعدائه، بل من الموت نفسه.. فقـد جعـل لهـا مـن الشرق والغرب والشمال والجنوب أبوابًا..

ـ لقد حدثتنى عن هذه الأبواب!

فقال: ولكنى لم أحدثك عن متـانتها، وطـريقة صـنعها. كان لكل باب منها بابان، باب دونـه بـاب.. وبـين البـابين دهليز متين ورحبة واسعة.

ـ هذا تفصيل لا جدوى منه!

فقال: هل تعرف من أين جاء بهذه الأبواب؟ لقد جـاء بها من بلدة واسط، وقيل لنـا إنهـا أبـواب الحجـاج، وإن الحجاج كان قد وجدها على مدينة بناها النبى سليمان بن داود

وكانت تعرف باسم «زندورد» وعدد هذه الأبواب خمسة... أما باب خراسان فجيء به من الشام وهو من صنع الفراعنة!

وقد جيء بالباب المؤدى إلى الكوفة من الكوفة نفسها.. وأضعف الأبواب كان الباب المؤدى إلى الشام وقد صنعه أبو جعفر بوساطة عماله.

- وكيف كان قصر الخليفة؟

فقال: كان فخمًا، ضخمًا، فسيح الأرجاء، شامخ البناء، وكان فى وسط القصر إيوان طوله ثلاثون ذراعًا، وعرضه عشرون ذراعًا وفوقه قبة، على رأسها تمثال فرس يمتطيه فارس فى يده رمح... وكان ارتفاع القبة ثمانين ذراعًا، فكان الناس يرونها من جميع أطراف بغداد.. وكان هذا التمثال يتحرك والفارس فوقه، والرمح فى يد الفارس.. كلما وقع حادث فى جهة من الجهات فيعلم الخليفة أن حادثًا وقع قبل أن تأتيه التفصيلات!

وكان مجلس المنصور ينعقد على القباب المنصورية فوق أبواب المدينة.. وكل قبة منها مزخرفة عالية ذاهبة فى السماء.

ـ وأين كان موقع القصر؟

فقال : كان بالقرب من نهر دجلة، وقد سماه قصر الخلد، تشبيهًا له بجنة الخلد!

وقد فرش بالديباج والحرير وصنعت أرضه وجدرانه من العاج والمرمر والرخام والأخشاب الغالية. وكانت حماماته آية فى الفخامة والرواء. وقد زينت مداخل القصر، وأبهاؤه، بالتماثيل، والتهاويل، وفرشت بالسجاد المجلوب من فارس!

وحدث أن زارت بغداد وفود من ملوك الروم، ونزلوا ضيوفا على الخليفة فى قصره، وأبدوا إعجابهم بما رأوا من مظاهر العظمة والفخامة، ولكن أحدهم قال للخليفة : إنك بنيت بناء لم يبنه أحد من قبلك.. غير أن فيه ثلاثة عيوب.. بعده عن الماء ولا بد للناس من ماء لشفاههم.. وليس فيه بستان والعين تشتاق إلى الخضرة.. ووجود رعيتك معك فى بناء واحد بسبب هذه الأسواق الداخلة فيه، وإذا كانت الرعية مع الملك فقد فشت أسراره!

فقال الخليفة : أما العيب الأول فحسبنا من الماء ما بل شفاهنا!.. وأما العيب الثانى فإنا لم نخلق للهو واللعب..

وأما العيب الثالث فليس عيبًا لأنه لا يوجد سرّ دون رعيق!

ـ لقد كان خليفة شعبيًا إذن!

فقال أبو النواس: كلا.. ولقد قال هذا الكلام من باب المكابرة، فلم تكد الوفود تبارح بغداد حتى أمر بمد قناتين من دجلة إلى القصر، ونقل الأسواق إلى بلدة الكرخ وغرس البساتين حول قصره..

ومضى يقول: هذا القصر العظيم.. لم أره في عهد المنصور بطبيعة الحال، وكل ما قلته لك ليس إلا حكايات سمعتها من الرواة. وقد ظل قصر المنصور في بغداد معقلا للخلافة.. وجدّت بعده قصور أكثر عظمة وفخامة، كانت كلها لهارون الرشيد والبرامكة... وفي عصر هارون الرشيد ذهبت إلى بغداد، وكانت تموج بالدسائس والفتن السياسية، كان فيها حزبان: حزب العرب ويتزعمه الفضل بن الربيع وتسنده داخل القصر زبيدة زوجة هارون الرشيد.. أما الحزب الآخر فهو حزب البرامكة، وكانوا حاكمين بأمرهم.. كانوا يحكمون الرعية ويحكمون الخليفة، كانوا أقوياء، رأسهم الكبير شيخ حنكته التجارب والعلوم وهو يحيى بن البرمكي، وولداه

جعفر وخالد تقاسما الهيل والهيلمان والقوة والسطوة وكانوا يعاملون هارون الرشيد كما لو كان طفلاً.. وفى الحق أنه كان طفلاً له شارب ولحية وعمامة وسيف.. كانوا هم وحزب العرب بزعامة ابن الربيع وزبيدة يتقاذفونه بالأقدام..

- كان كرة؟!

فقال: الكرة تتقاذفها الأيدى.

- توجد فى أيامنا رياضة تسمى كرة القدم.

فابتسم وقال: كان هارون بين حزب العرب وحزب الفرس فعلاً.. كرة القدم!

كان همه أن يشرب ليلهو.. ويلهو ليشرب.. ويجمع الشعراء والفساق حوله ليعرف الدنيا.. ويجمع الفقهاء والعلماء ليدخلوه الجنة!

ولما وصلت إلى بغداد كانت الفتنة قائمة على قدم وساق، ولكنى كنت أريد أن أصل إلى الخليفة.. أريد جوائزه وعطاياه.. أريد ذهبه لأنفقه على لذتى ومتعتى.. وكان أمامى طريقان.. طريق الفضل بن الربيع ولكنه طريق شائك، وطريق البرامكة وهو طريق مزدحم بالرائحين والغادين والواقفين والمنتظرين.

وهدتنى الفطنة إلى أن أبعد عن البيئة السياسية حتى أتبين الأمور، فلم أكد أصل إلى بغداد حتى التقيت بأصدقائى من الشعراء والمجان والشبان وكنت قد عرفت بعضهم فى البصرة، وعرفت بعضهم الأخر فى الكوفة، وكانت جوارى الخليفة يهربن من قصره، ويختلطن بصديقاتهن من جوارى السراة والأشراف والأمراء، وقد استطعت منذ الليلة الأولى أن أندمج فى هذا الجو العابق بأنفاس اللذة، والمجون، والشراب، والدخان . .

وقد أمضيت أول ليلة فى حانة ضمت عنان لعنة الله عليها . . . ومطيع بن إياس وحمّادًا وكثيرين من شباب بغداد بينهم النصرانى والمسلم واليهودى والمجوسى، وكانت هذه الحانة على شاطئ دجلة . . وقد فرشت مداخلها بأغصان الورود والريحان وألياف النخيل وأعواد الكروم . .

ووقفت أوانى الخمر الضخمة الكبيرة على أبوابها كما لو كانت حراسًا ! وتدلت منها وحولها عناقيد العنب . . والنهر من جانب . . والبستان من جانب . . فعن اليمين جداول منسوقة . . وعن الشمال حدائق وكروم !

وقد خصتنا صاحبة الحانة بمكان جميل هادئ، وأخذنا نشرب ونلهو نتبادل السمر والدعابة والشعر المرتجل... إلى أن عقدت الخمر ألسنتنا فكنا نتفاهم بالإشارة.. نتفاهم على طلب المزيد من الشراب... كل منا سكران، وكل منا يريد أن يشرب:

فكل كف رآها ظنها قدحًا وكل شخص رآه ظنه الساقى!

وقد كنت أكثرهم نهمًا وظمأ... لم أكن أشرب كوزًا.. بل كنت أشرب دنًا.. كنت أستل ما فى الدن، وأدعه فارغًا.. جسدًا بلا روح!

مازلت أستل روح الدن فى لطف وأستقى دمه من جوف مجروح
حتى انثنيت ولى روحان فى جسد والدن منطرح جسما بلا روح!

وقد اكتشفنا فى آخر الليل أننا جئنا الحانة وليس مع أحد منا دينار ولا درهم... وارتابت صاحبة الحانة فى أمرنا فطالبتنا بالأجر فكاشفناها بالحقيقة وطلبنا إليها أن تطلق سراحنا على أن نعود إليها فى الغداة ومعنا أجر الخمر والطعام... ولكنها أبت إلا أن تستبقى واحدًا منا، رهنًا... فقبلنا، وقالت إنها ستتولى بنفسها اختيار الرهن وخشيت أن

تختارنى.. فقد كانت عجوزًا، رومية، قبيحة.. ووقع ما خشيت، وأطلقت سراحهم جميعًا واستبقتنى عندها... وقلت فى ذلك شعرًا...

ـ ماذا قلت؟

أبو نواس فى حانات بغداد !!

الأمين يبحث عن نديمه شهرًا ليشرب معه!

قلت : لأبى نواس : هاتها !

فقال : ماذا ؟ الخمر؟ ليس عندى خمر؟

ـ هات قصيدتك فى الحانة التى استبقتك صاحبتها رهنًا عندها. . . فقد وعدتنى أمس بهذه القصيدة ؟

فقال : أى الحانات تعنى ؟

ـ حانة الرومية العجوز « حنون » التى ذهبت إليها فى صحبة إخوان السوء ولم يكن معكم دينار ولا درهم فأبت إلا أن تستبقى أحدكم رهينة، وكنت أنت الرهينة !

فقال : لقد كنت أنا صاحب فكرة استبقاء أحدنا رهينة ودفعت الثمن غاليًا !

ـ دفعته نقدًا ؟

فقال : يا ليت !

واستطرد يقول : ذهبنا إلى الحانة، كان البرد شديدًا. والطريق موحشًا :

وللليل جلباب علينا وحولنا لما إن نرى إنسًا لديه ولا جنًا

إلى أن طرقنا بابها بعد هجعة. فقالت : من الطراق؟ قلنا لها :

إنّا شباب تعارفنا ببابك . . .
فقالت لنا : أهلا وسهلا ومرحبا
فقلت لها : ما الاسم؟ ما السعر؟ بيني
لنا سعرها كيما نزورك ما عشنا!
فقالت لنا : «حنون» اسمى . . وسعرها
ثلاث بتسع . . . هكذا غيركم بعنا!
فقلت لها : جئنا وفى المال قلة
فهل لك فى أن تقبلى بعضنا رهنا؟
فقالت لنا : أنت الرهينة عندنا
متى لم تفوا بالمال خلدتك السجنا!!»

فسألت : هل صرت رهينتها فعلا؟
فقال : نعم!!



- وهل ذهبت بك إلى السجن ؟

فقال : كان السجن أحب إلى مما دعتنى إليه !

- وكم بقيت عندها ؟

فقال : ثلاث ليال !!

- وحدك ؟

فقال : وحدنا . . . هى وأنا !

- وكيف أطلقت سراحك ؟

فقال : بعد ما أخذت الثمن !

- كم دينارًا أخذت منك ؟

فقال : لم تأخذ مالا ولكن أخذت أعصابى !

وابتسم وهو يقول : على أى حال لم أعطها مالا . . ولم أذهب إلى السجن . . ولقد علمنى هذا الحادث ألا أطرق باب حانة إلا إذا كان معى من الدنانير ما يكفى لشراء الحانة . . . حتى لا تتكرر مأساة حنون !

- وهل كانت هذه الحانة أجمل حانات بغداد ؟

فقال : كانت أول حانة دخلتها فى مدينة السلام .

- هل كان للحانات مكان خاص، تتجمع فيه، كسوق

العطارين فى الكوفة مثلاً ؟

فقال : الحانات فى بغداد متفرقة فيها، متناثرة حولها، وقد اختار لها أصحابها أماكن جميلة يحيط بها الزهر والنخيل والشجر ويحف بها ماء النهر بعضها فى متناول العين والقدم.. وهذه هى الحانات القائمة فى جوف بغداد. وبعضها فوق متناول العيون والأقدام... وهذه هى الحانات القائمة فى الضواحى القريبة من بغداد.

- وأى هذه الحانات كان أحب إليك ؟

فقال : حانات الضواحى والدساكر... وكنت أحب أن أغشاها ليلا. أطرق أبوابها وكأنى أهاجمها ! أدخلها وكأنى أسطو عليها ! وكان يسرنى اضطراب أصحابها وما أثيره فيهم من الذعر أول الأمر... ثم لا يلبث هذا الذعر أن ينقلب إلى دهشة وترحيب !

- كنت إذن تمثل دور الشرطى وأنت تطرق الأبواب، حتى تخيف أصحاب الحانات ؟!

فقال : إن أصحاب الحانات يخافون زوار الليل من اللصوص وقطاع الطريق... لهذا كانوا يغلقون أبوابهم ليلاً

ويتركون فى الباب ثقبًا يسع دخول الكوز وخروجه.. فإذا سمع صاحب الحانة طرقًا أطل من الثقب وسأل: من الطارق؟ إن كان من رواد الحانة أدخله. وإن كان عابر طريق تحدث إليه طويلاً حتى يعرف حقيقته. وإن كان شرطيًا أعطاه كوزًا من الخمر حتى يتستر عليه... وإن كان قاطع طريق لا يفتح له الباب أبدًا!

وقد كنت أوهم صاحب الحانة بأنى من قطاع الطريق. فأطرق الباب بشدة، وأثير ضجة أنا ومن يكون معى من الخلان.

ويطل صاحب الحانة من الثقب فنختبئ عن أنظاره ولا يسمع إلا أصواتنا فيعود إلى داخل الحانة خائفًا.. ثم لا يلبث أن يسمع أصوات ضحكاتنا فيجىء، وقد هدأ روعه:

وبادر نحو الباب سعيًا ملبيًا ... له طرب بالزائرين عجيب
وقال ادخلوا: حييتمو من عصابة ... فمنزلكم سهل لدى رحيب
وجاء بمصباح له فأناره ... وكل الذى يبغى لديه قريب
فقلنا: أرحنا هات إن كنت بائعًا ... فإن الدجى عن ملكه سيغيب
فأبدى لنا صهباء تم شبابها ... لها مرح فى كأسها ووثوب!!

وقلت لأبى نواس: يظهر أن جميع الحانات كانت متشابهة فى البناء والأثاث.. والساقى والساقية.. والظلام الدامس والمصباح المنير.. والشجر، والنخيل وأعواد الكروم... والخمور!

قال: نعم.. وكان لكل حانة عدا ذلك.. كلاب تحرسها، وتنبه أصحابها إلى الطراق!

ـ وكيف كنت تجد المال الذى تنفقه على الخمر كل ليلة؟

فقال: عندما ذهبت إلى بغداد كان معى مال قليل وقد أنفقته على نفسى وعلى أصدقائى من المغنين والشعراء، وهؤلاء تولوا الإنفاق بعد ذلك، إلى أن اتصلت بالخليفة، فكنت أملأ كفى من عطاياه، وأفرغها فى بيوت الخمارين!

ـ وهل كان الخليفة يعلم بذلك؟

فقال: كان يعلم أكثر من ذلك!

ـ كان يعلم ماذا؟

فقال أبو نواس: لقد اتفقنا على أن نذهب معًا إلى بغداد لأحدثك كيف اتصلت بهارون الرشيد، وكيف حبسنى،

وكيف أطلق الخليفة الأمين سراحى، ثم حبسنى ثم عفا عني... وإنى أرى أن الحديث عن حانات بغداد سيحدث اضطرابًا فى تسلسل الحوادث التاريخية فدعنا من هذا الحديث الآن!

ـ حدثنا عن حانات بغداد قبل اتصالك بهارون الرشيد وبعد اتصالك به، وبالأمين بعده، فإذا انتهينا من ذلك.. انتقلنا إلى تاريخك مع الخلفاء والحاكمين.. وأهل السلطان!

فقال: إن حياتى فى الحانات متشابهة.. سكر وعربدة، ومجون، وسهر طول الليل وطول النهار!!

ـ حدثنا عن أصحابك فى ارتياد الحانات.

فقال: لقد سبق أن ذكرت لك أسماءهم.. كل المغنين، وكل الشعراء ما عدا أبا العتاهية؟

ـ كيف كان أصحاب الحانات؟

فقال:

ـ كانوا رجالاً، وكانوا نساء، وكانوا جميعًا ينشدون الكسب الفاحش.

سألنى بعضهم من أنت؟

وقلت إلى لحوت الخمر أخطى!

قال : الدراهم. هل للمهر إبطاء ؟!

ـ هل كانوا يهودًا ؟

فقال : كانوا من اليهود، والمجوس، والنصارى، والمسلمين.

فبعض الحانات :

« أتيح لها مجوسى رقيق » !

وبعضها صاحبها « كريم الحيا، ظاهر الشرك، كافر.. له دين قسيس، وتدبير كاتب وإطراق جبار، وألفاظ شاعر ! »

وبعض الحانات كان صاحبها مجوسيًا، ومازلت حتى هذه اللحظة أحن إلى واحد منهم هو « سابا شمرا ».

ـ من يكون سابا شمرا هذا ؟

فقال : كان أحور العينين جميلا .

فلما قرعنا بابه هب خائفًا ... وبادر نحو الباب ممتلئًا ذعرا
وقال : من الطراق ليلا فساءنا؟ ... فقلت له : افتح .. فتية طلبوا خمرا
فأطلق عن أبوابه غير هائب ... وأطلع من أزراره قمرا بدرا

فقلت لـه : م الاســم - حييــت ؟ قــال :

دعــانى بى « ســابا » ولقبــنى « شمــرا »
فكدنا جميعًــا مــن حــلاوة لفــظه
نجــن، ولم نســطع لمنــطقه صــبرا !

ومضى أبو نواس يقول :

- وقد ذهبنا إلى حانة، وحسبنا صاحبها نصرانيًا، فقد كان يشد على وسطه حزامًا، كعادة النصارى، فلما كاشفناه بظننا، ثار وغضب، وقال : كيف تظنون بى ذلك ؟

فسألناه : أمسلم أنت ؟
فقال : لا
فقلت : على دين المسيح ابن مريم ؟
فأعرض مزْوَرًّا، وقال لنا هجرا . .
فقد كان يهوديًا واسمه السموءل.

- ولكن كيف جرؤ على أن يغضب ليهوديته ؟

فقال : لقد غضب لسمعته . . فقد كان اليهود أبرع الخمارين على الإطلاق.

- وهل كان السموءل هذا بارعًا حقًا ؟

فقال : كانت خمره روحًا صافية!

وجاء بها زيتية ذهبية فلم نستطع دون السجود لها صبرا
أتينا على أن المقام ثلاثة فطابت لنا حتى أقمنا بها شهرا

- لم تذكر لى شيئًا عن الخمارين المسلمين!!

فقال : كانوا فاشلين.. ولم يعجبنى منهم إلا جابر.

- وكيف كان موقف الخليفة منك؟

فقال : كان الخليفة الأمين لا يطيق بعدى عنه.. كان ينهانى عن الشراب إلا معه.. وقد هددنى بقطع رأسى إذا أنا ذهبت إلى الحانات، ولكنى برغم تهديده ظللت أعاقر الخمر سرًّا...

وقد حدث أن رحلت من بغداد إلى الكوفة، وذهبت إلى حانة جابر، وهى تقع فى الحيرة، وكان جابر هذا لطيف الخلقة، نظيف الثياب، يهتم بأدوات الشراب، وقد التقيت عنده بصديق ابن الصلصال، وكان يعرف شدة شغفى بالخمر، والاستماع إلى الغناء، فقدّم لى الشراب، وجمع المغنين وضاربى الطنبور، فامتنعت عن الشراب وقلت له : «ألم تعلم بما حدث لى؟.. لقد نهانى أمير المؤمنين عن الشراب وتوعدنى عليه..»

واكتفيت بسماع الأغانى، وشم رائحة الخمر وقلت قصيدتى :

أيها الرائحان باللوم لوما لا أذوق المدام إلا شميما !

ولكنى لم أطق صبرًا على ذلك. فما هى إلا ساعة، حتى وجدتنى أشرب الخمر، وكنت أصيح من فرط النشوة والغيظ. . « هاتها. . هاتها. . » ولعنت الأمين. . وأم الأمين !

ولما عدت إلى بغداد، وقابلت الأمين سألنى أين كنت؟ فأخبرته بأنى كنت عند صديق ابن الصلصال. ورويت له ما حدث من امتناعى عن الشراب أول الأمر. . فقال لى وماذا صنعت آخر الأمر؟

فقلت : « شربت والله يا أمير المؤمنين » ! فطلب منى أن أشخص إلى صديق وآتى به إلى أمير المؤمنين؛ وقد أدناه منه وأحب فيه قدرته على الشراب وظل معه إلى أن لقى الأمين مصرعه !

- يبدو أن الأمين كان مولعًا بالخمر؟

فقال : لا أعرف أحدًا هام بالخمر كما هام بها أمير المؤمنين الأمين !

- أمير مؤمنين. . ويشرب الخمر؟!

فقال : ليس هذا هو العجب!! ولكن العجب أن يشربها، ويقيم الحد على من يشربها!

ـ ولكن الأمين كان صديقك!

فقال : وهل الصداقة تمنع من ذكر حقيقة الصديق... ؟ لقد أحببته، وكان لا يصبر عني عندما ينشط للشراب، وكان يطلبني بعض الأحيان فلا يكاد يجدني، فيغضب غضبًا شديدًا وكان بعض ندمائه يحسدني على موضعي منه، فانتهز فرصة غيابي عن الأمين.. وغضب الأمين من هذه الغيبة.. وسبّني أمامه وقال له : يا أمير المؤمنين : هذا شخص ينادم السفلة والسوقة، ويغشى الحانات، ويرتكب الفواحش، وإن في منادمته لك تجريحًا لأمير المؤمنين.. فأسكته الأمين وقال له : ألغ هذا الكلام.. فوالله ما ينبغي أن يكون نديم خليفة إلا مثله في أدبه، وظرفه، وعلمه، وكمال خصاله. وما غضبت عليه إلا تأسفًا على ما يفوتني منه!

وعقب أبو نواس قائلا : مثل هذا الإنسان أحبه، ولكني لا أستطيع أن أتستر على حقيقته.. وهذه الحقيقة هي أنه أولع بالخمر.. ولم يولع بشيء سواها!

واستطرد يقول : وقد حدث أن غبت عن الأمير شهرًا، فبعث رسله ليبحثوا عني، وجاءوا إليه، وأخبروه أنى كنت أقيم فى حانة أحد اليهود، منذ شهر، لا أفيق من السكر، أنا وأصحابى. . فغضب الأمين، وأحضرنى بين يديه وقال لى : لقد هممت أن أضرب عنقك. وحلف إذا شربت فى حانة مع الناس فإنه سيقتلنى، ووضع لى العيون والجواسيس ثم قال لى اخرج من عندى! فخرجتُ وقد صح عزمى على ترك منادمة الناس والشراب فى الحانات خوفًا على نفسى.

وجفانى الأمين. وبعد أيام بينما كان الأمين فى مجلس شرابه طابت نفسه لرؤيتى، فدعانى إليه، فلما التقيت به شكوت إليه ما نالنى من غضبه، وسألته الصفح فأقعدنى إلى جواره وقال لى :

ـ «هيه. . . تظل شهرًا فى منزل يهودى منتن. . متكئًا على دن مزفت وأنا أطلبك فى كل مكان ولا أقدر عليك»؟!

فقلت له يا أمير المؤمنين :

ـ من تمام العفو ألا تذكر الذنب. .

فضحك وسأل ماذا قلت فى هذا الشهر من الشعر؟

فأنشدته قصيدتى الرائية وفيها أقول :

إذا ما أتى وقت الصلاة تراهمو يحثونها... حتى تفوتهمو سكرا

فاستحسن الأمين ذلك وقال لغلامه : اسق القوم ولا تسق أبا نواس فقلت له : يا أمير المؤمنين. لم؟! فقال لأنك تصف الساقى إذا ناولك الكأس بأنه قد سقاك كأسين.. كأسًا بعينيه وكأسًا بيده.. فماذا تقول الآن إذا لم يسقك شيئًا !

فأنشدته قصيدتى البائية.. وفيها أقول :

سقانى ومنّانى بعينيه منية فكانت إلى قلبى ألذ وأطيبا

فقال الأمين : ويحك.. لم ينج منك الساقى على أى حال.. اسقه يا غلام!

محتويات الكتاب

صفحة

رقم الإيداع	١٩٨٧ / ٢٦٨١
الترقيم الدولي	٩٧٧-٠٢-٢٠٠٦-[illegible] ISBN

١ / ٨٦ / ٢٢٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)